فِي عَمَاءٍ
الفيلسوف والمفكر الإسلامي
م.محمد نبيل كبها

# في عماء

# "نسق"

**فلسطين – نابلس – شارع تونس**

**بجانب مسجد أم سلمة**

# في عَمَاء

## الفيلسوف والمفكر الإسلامي

## محمد نبيل كبها

**الطبعة الأولى**
**2025م**

*All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing of the writer*

**جميع الحقوق محفوظة، يمنع ترجمة أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها لأغراض تجارية بدون إذن خطّي من المؤلّف.**

# إهداء

**عندما كنت أسير محتفِ القدمين بلا هوية، كانت هي هويتي.. علّمتني ألفانية الوجود لتشعل مساعر حرب أجتاز بها حزني نحو سعادتي..**

**الى ثورة العقل.. الى التربة الخضراء.. الى وردة أحرقت قصري.. الى زوجتي "دنيا".**

**أمّا عن تلك القصة السعيدة، فلا زلت عالقا بين طيّات صفحاتها، وكأنها روح عائمة بين أضلعي، استوطنت وطنا أحرقت فيه وردتي قصراً لم يعد لي..**

**الى روايتي "نبيل"، ونخلتي "تالا"، ومن وضع حدّاً لمنعطفات فصولي.. الى مُشاكسي الصغير "كريم".**

# المقدمة

هذه الكلمات..

كلمات لا تُتقن فن المراوغة، لا تصلح للتمثيل الدبلوماسي، ولا تعرف المجاملة، تدق باب فلورنسا لفتح التساؤلات..

كلمات غادرتني رغما عني بحثاً عن مفتاح يفتح مدينة الإنسان، وما الإنسان يا عزيزي سوى نسيج من مادة ونفس وروح عصية على النسيان..

كلمات ستمسك بذراعها، لأنك ستجدني فيها، وسأجدها فيك، ستأخذك في رحلة عجيبة نحو إدراك آخر ليس كما ظننت، فكن مستعدّاً لواقع مُغاير، وكلمات تُفكّك دفق التفكير المائل والمتلاطم نحو إدراك تتكتّل فيه المشاعر والملفوظات والمفاهيم على صفحات هذا الكتاب..

# توطئة

**الفلسفة هي كل ما يحيّرنا.. وليس لزوماً علينا أن نعرفه!!**

**الفيلسوف والمفكر الإسلامي**

**محمد نبيل كبها**

# مُعلّق أنا في حقو الفراغ

كنت هناك.. لوحدي كنت هناك.. في عماء، كان السواد مُنداحاً، فراغ واسع بلا أرض تمسكه، ولا بُعد يرسمه، وفجأة ظهرت حمامة أمامي، لم يكن سوا أنا والحمامة، جعلت تحدق بعين ناقدة في عيني، وجعلت أحدق في عينها، شعرت وكأنها تعرفني، ولكني لم أعرفها في باكورة الأمر، حتى لاحظت أن في وجه الحمامة شبه ما من وجهي، رأيت في ملامحها عبقري يهذي.

حطت على كتفي، حملتني الحمامة، فتحت نافذة الفراغ، وطارت بي، ولَجَت في لحظة شبق أنتولوجي في اللامكان، لأجد نفسي أمام شجرة صوفية معلقة في حقو الفراغ، فراغ آخر ليس كالفراغ.

جلست الحمامة فوق الشجرة، وجلست أنا تحتها، ولم تكن كالأشجار، وفي برهة اشتهاء ميتافيزيقية ابتلعت الشجرة الحمامة في سهوبها، ثم جعلت تحدق بعين ناقدة في عيني، لم يكن سوا أنا والشجرة، شعرت وكأنها تعرفني، ولكني لم اعرفها في باكورة الأمر، حتى لاحظت أن في وجه الشجرة شبه ما من وجهي، رأيت في ملامحها مجنون يذوي.

قفز ذهن الشجرة الى ذهني، الوجود كله أصبح في ذهني، تزاحمت العوالم، وكان هناك أكثر من كائن يسكنني، سمعت حديث النملة، ونواح الوردة، وصرخات جندي من ورقة.

أحسست أنني في كل شيء، وضعت مني، شاهدت ديناميكية الانتخاب فوقي، أرنب مرعوب يهرب من انحناءات الافعى، والافعى تسعى لضمه داخل تكويرة جسدها الدوغمائية، عندما ابتلعت الأفعى الأرنب كنت مرعوباً ومرتاحاً في نفس الوقت.

في معدة الأفعى شاهدت المؤامرات وهي تحاك، وشاهدت القاتل الحقيقي الذي ضغط على الزناد، وشاهدت أكاذيب توزّع فوق المقبرة، أسفلها ببضعة مترات كان سنجاب يدندن بأغنية لسعاد، شاهدت وشاهدت وشاهدت حتى جاءت قذيفة من روح السواد وبلعت الشجرة.

حاولت ان أهرب من ذهن الشجرة، حاولت الشجرة أن تهرب من ذهني، ولكني وحلت في زفراتها، رأيت موتي، وعند خروج روحي عرفتني، كنت أنا الشجرة.. كنت أنا الشجرة.. وبقيت معلقا في حقو الفراغ!!

# هكذا ينبت الورد في حديقة الشيطان

ها أنا يتقدّم بي العمر، وأرى الطّقس راكدا كساق مكسورة، تتنهّد من تشابه الأيّام المتتالية، ولا تستطيع تفسير إعجابك بمدى إعجابك أو مدى تحقيرك في آن واحد.

ترى المناخ الذي يحيط بنا هو مناخ استعبادي، فيخلقون لك أنا جديدة تُحيل أفكارك إلى أفكار ضبابيّة.

ترى الشّمس تشرق وتغرب كإنسان مرهق، وترى الأغلبيّة تقع في تفاصيل السّطحيّة والسّذاجة والمسخرة.

أحيانا تفكر في زوبعة التّحدث عن الإنسان بدون مساحيق تجميل.

أحيانا تفكّر بشغف في الضّغط القاهر الذي شهدته، أحيانا تفكّر بلحظات الصمت المشتاقة في داخلك.

أحيانا تفكّر في الحشرات الملتصقة بسيقان العشب، أحيانا تفكّر وتسأل: هل الهواء هو من يحرّك ورقة الشّجرة؟ أم أنّ ورقة الشجرة هي نفسها تتحرّك؟ أم أنّ عقلي هو من يرى ورقة الشّجرة تتحرّك؟!

أحيانا تفكر في الأشكال العجيبة والجميلة للغيوم، أحيانا لا ترغب بالعودة مثل تلك الغيمة الممزّقة، لأن العودة إلى ذلك الأمر أشبه بمن هبط على كوكب المريخ، أو هبط على القمر وحيدا.

أحيانا تفكّر بما حفرهُ الاكتئاب من أبيات على جبينك.

أحيانا تعود إلى ذلك الحضن منهكاً كبئر جافة مرتبطة بيوم غد بخيط ضعيف من اللّامبالاة.

عندما لا يتحرك شيء في جسدك إلا أمواج المِلح المُتمَلمِلة.

عندما تُغمض عيناك وتحمل طقسك معك.

عندما تشاهد الحوت الأزرق الكبير يسبح في ظلام هيكلك.

عندما يتملّك الجوع من عيناك.

عندما تعود إلى منزل من عظام، وكل ما تراه الآن كلّه عظام..

في النهاية:

هكذا ينبت الورد في حديقة الشيطان!

# لو كان للشجرة خط مينكوفسكي

صحيح أنني جسدياً لا أستطيع اختراق فضاء مينكوفسكي، لكن روحياً أستطيع، ولو كان للشجرة خط مينكوفسكي، لرأيت فيها المعجزات، وكأن يد الله تعالى تجري في عروق هذه الشجرة، وتبسط فيها أراضٍ وبساتين وساحات، وترفع فيها عوالم وكواكب ومجرات، تعود بك الى نقطة الانفجار العظيم.

حتى الوردة التي ترقص في ذلك البستان، رأيت فيها شمساً وقمراً ومطراً ودخان، وعلى صفحة ورقتها كانت تسبح نجمة، وفوق كأسها تزحف يرقة، وتعانق تلك النحلة حرفها بحنان.

لقد كان كل ذلك عندما حدثتني الشجرة عن الإنسان، والنملة عن سليمان..

# متى سيستيقظ العملاق النائم

ما بدأوه بالشرّ لا يقوى بالنسبة لهم إلّا بالشّر، ولقد حقّق الشّر أعظم إنجازاته وأعظم انتصاراته، وانطفأ النور، ولا أعلم كيف انطفأ النّور؟

أبسبب سطوة الليل أم خزي النهار؟ يغلّف الظّلام وجه الأرض، فيما يجب أن يقبّله نور الشمس!

هل هذا سكين يلوح أمامي!؟ أم أنّك سكّين من وهمي ومن صنع خيالي!

هذا السّكين جشّ الجسد، وهيهات أن توقف نزيفا حاداً بوضع لصقة جرح عليه، هيهات!

وإنّه لأمر بالنّسبة لي في غاية الغرابة، فهم يصرخون ويضحكون ويتفاخرون أنّهم جرحوا الأفعى، نعم لقد جرحتم الأفعى، ولكنّكم لم تقتلوها، لذلك ستعود، وسنبقى دائما عرضة للسعتها.

كنت أقولها دائما: لا يمكنك مناقشة ومفاوضة الأفعى عندما يكون رأسك داخل فم الأفعى؟! لا يمكن!

لقد فعلت الخيانة ما تبرع فيه دائما، فخلف الابتسامات التي تحيط بنا خناجر لا تتوقف عن قتلنا يوميّاً، وخمرة الحياة قد سُكبت، ولم يتبقّى إلّا أن نسكر وأن نرقص فرحاً لسقوط كائن عظيم اسمه الإنسان!

في النّهاية:

ها أنا أرى الأحجار تحرّكت والأشجار تكلّمت بحكاية يرويها أبله، حكاية حافّة بالصّخب والغضب والألم على عملاقٍ نائم، ولا أعلم متى سيستيقظ هذا العملاق النّائم!

# لذلك لم تسجد الملائكة للشمبانزي

هل سألت النّملة نفسها يوماً كيف جاء الكون؟ وهل استعلمت السلحفاة "جوناثان" عن الدرقة التي تحملها فوق ظهرها لأكثر من 140 عاماً؟

هل تساءلت السمكة في نفسها إذا كان العَيْرُوس سيحبها إذا كانت زعانفها انسيابية ولونها زاهٍ وبرّاق؟

هل اكتشف الخنزير النيوترون؟ أم هل صك الحمار نظرية الفوتون؟

هل جلست الكلاب فيما بينها قلقة حول حياتها المهنية؟ أم هل تدبّرت القطط في أخطائها اليومية؟

هل فكرت الخراف في استبدال راعيها، أو العمل السياسي، أو الفعاليات الوطنية؟

هل حاولت القردة فك معادلة رياضية، أو دارت فيما بينها بمجادلات حول نظرية فيزيائية؟

لذلك لم تسجد الملائكة للشمبانزي!!

# الكتابة هي حياتي

عندما أجلس بجواري، وننظر معا نحو هذا الكوكب الأزرق، فإنني أتركك هنا وأخترع عوالمي.

أنغمس على مستوى هذا الورق بدافع أشبه بالحاجة العضوية، فأقتل أحدهم في روايتي، وأنقذ أخرى من تحرشات النص.

يا أناي الحزينة..

لا أحد يجبر كاتباً على أن يكون كاتباً، ولكن الكتابة هي حياتي نفسها.

# عتيقتي الضائعة

كنت أجُس الجشة في فؤادي بماء القلم، وأزيل الجلحة الممتدة برأسي بممحاة هذا القلم.

أكتب للرواية عن قصتي، أكتب للقصة عن حكايتي.

ما أسوأ ما نَزَل بيننا؟!

إزاء زهد التاوية وتحرر البوذية سؤال:

هل التخلي يُترجم إعلانا للهزيمة، أم أنه التحرر إلى رحاب غير مشروط؟

وهل هو بدافع احترام الكرامة أم حماية الذاكرة؟

أي كان يا عتيقتي الضائعة، لا تتركي الباب مفتوحاً أمام أجنحتي الطائرة.

# الحمامة البيضاء

ابني نبيل.. أحاول العثور على الحمامة البيضاء وسط التناهيد الكثيرة، وأنّات النساء، والنص المكتوب.

يا بني.. ستعيش كثيراً، وتموت كثيراً، فوطننا حزين، يبحث عن محبوب.

يا بني.. وحيث حوّر الغول شخوصهم من كاريكاتورية الى دموية، وأمطر الخارطة حدوداً وجنود.

نحو ذلك الرحم العقيم ادفع، وافتح كل طريق مسدود، واكسر أسرك من تحت ذراعه، وفوق رفاتك تمرّد، حطّم كل قيد مصفود، واقطع يده اليمنى التي تحمل ماخوراً وهميّاً، وأسقط من يده اليسرى البارود.

يا بني.. ولا تخف.. دع الحمامة تبني عشها فوق رأسه، وأعدل هذا الوطن المقلوب..

# عندما تبني سفينة من البهائم

لديه ذكاء حيوان ال sloth، ولديها سلوك الأموات.

هو ميكانيكي، وهي ربة منزل.

هو لا يفهم شيء في ميكانيكا السيارات، وهي تطبخ مقلوبة سيئة المذاق.

نُباحهُ أسوء من العض، ونيرانها ملتهبة تحت ذلك الثوب.

شرقهُ لا يقابل غربها، وهُدم بينهم جسر الحُب.

ولن أنسى من استيقظ في الساعة الرابعة صباحاً لكي يحقّق حلمهُ، كان لديه حُلم في رأسه، والآن لديه رصاصة مكانها.

ما ينقصنا هو كلمة واحدة من حرفين، الكل منشغل بها، الكل يريد أن يسمعها، الكل ينتظرها كرشفة من النبيذ بعد أن تعبر الصحراء.

ولكن عندما تبني سفينة من البهائم، وتغرق، قد تجد ذراع مقطوعة أو قدم منقوصة، لكن المصيبة العظمى هي في تلك الروح المبتورة.

في النهاية:

هناك من يَحيُون حياة كاملة في دقيقة، وهناك من تكون الدقيقة بالنسبة لهم حياة كاملة..

# متى يقرر الخروف أن يصبح حرّاً؟

في أحد الأيام ذهب الراعي إلى المُراح لكي يُوقظها، فصار الراعي ينادي كل خروف باسمه، فهو يميز الخروف الكسول من الأعرج، ولكنها كانت نائمة في سُبات عميق، فأيقظ الرّاعي خِرافه بالعصى، وساقها إلى المرعى، وفي الطريق أخذ الراعي يحاور خرافه، ويحدثها عن أعماله وإنجازاته وبطولاته وأي مغنّي يحبه، وأي طعام يشتهيه، وأي فتاه يعشقها، وخِرافه تهز رأسها وتفهم ما يقوله.

ثم قال في نفسه: "ليست الخِراف بحاجه الى اتخاذ قرار، إن الحاجة الوحيدة للخِراف هي الطعام -الماء والغذاء- فمادام الراعي يعرف المرعى الخصب تبقى الخراف صديقه له، وتبقى قريبه منه باستمرار، وحتى لو كانت الأيام كلها تشبه بعضها بالنسبة للخِراف".

الخِراف لم تقرأ أي كتاب، وليس لديها الفكر الفلسفي ولا الحد الأدنى من المعرفة، فقط هي تهتم بأمر واحد، وهو أن تُعلفها وتُطعمها وتُسقيها، وهي في المقابل ستمنحك صوفها وحليبها، وإن لزم الأمر ستعطيك لحمها.

ثم همس الراعي في نفسه: "وإن خطّطت لقتلها لن تدرك ذلك، لأنها تثق بي، أصبحت تثق بي أكثر مما تثق بنفسها وبغرائزها، فأنا من يقودها منذ زمن طويل ويطعمها ويسقيها"، وهكذا انتهي الأمر بتعلق الخراف بسيدها الراعي.

في النهاية:

الخِراف تبقى دائما في حالة قلق واضطراب جراء استبدال راعيها، لكن ماذا لو أن الخِراف أَلِفت غياب الراعي؟ وتمرّدت على أيامها المتشابهة معه! ماذا لو أدركت الخراف الحقيقة؟ حقيقة الأشياء الجميلة والحقيقية في حياتها وفي العالم من حولها؟!

لو أدركت الخِراف الحقيقة لعلمت أن حريتها تماما كحرية الرياح التي تأتي من حولها وتذهب بعيدا، ولأصبح الخروف حرّا كالريح التي تحمل أحلام الأحرار، وأنا أعلم تماما أن الخروف إذا أدرك الحقيقة سيصبح حائرا بين الراعي والحرية.

فمتى يختار الخروف بين الراعي والحرية؟ ومتى يقرّر الخروف أن يصبح حرّا؟

# صغيري الذي أشعل الاشتباكات

كريم.. أرسله الله تعالى هدية لي بعد عشرة سنوات من الانتظار، فارضاً حضوره النوعي في ميداني، فكان على مسافة واحدة مني، ومني كان على مسافة واحدة منه.

هذا الصغير الذي أشعل الاشتباكات الفصائلية، والحروب الطائفية، والاختلافات الشرائعية، وهو بريء من كل هذه التفسّخات؟!

بأعينه البريئة حركني كما تحرك الآلة بالريموت عن بعد، فصنعت ما صنعت، وعندما انزلقت، كان هذا الصغير قد لخبط المعايير الثقافية، فأربك عقل الملحد، وخربش كتاب المسيحي، وكسر قلم المسلم، وهدم لبنة الشيوعي، ثم حضن الألوان كلها، ورفع راية الوحدة والرحمة والإنسانية غير عابئٍ بموتي!!

وكرسالة مائلة على جسدي، وماثلة على جسد الكوكب، رفع صوته عاليا في زمن لا يسمع فيه إلا الهمهمات، قائلاً: "لقد فعل أبي ذلك من أجلي".

# معركة في عقلي بين ستة مجانين

أصوات عديدة أيقظتني صباحا، هذه الأصوات كانت تصرخ بكلمات ينسكب في نصوصها شطحات جنونيّة، تعزف على أوتارها لتتجلى تلك الحكم المخبولة.

استيقظت وفي داخلي تقام أعظم النزاعات وأعظم الثورات، وهذه المعارك يصوغها ويقودها مجانين على أرض عقلي، معركة بين ستة مجانين:

الأول يقول: لا يوجد قنفذ أملس.

والثاني يقول: متى يقرّر الخروف أن يصبح حرّا؟

والثالث يقول: لقد انتهينا من بناء سفينة البهائم.

والرابع يقول: متى يستيقظ العملاق النائم؟

والخامس يقول: هكذا ينبت الورد في حديقة الشيطان!

والأخير معلق في حقو الفضاء يقول: أنا لا أخاف من الموت، ولكني أخاف ألا يفهمني أحد!

# عندما يصنعون لك (أنا) جديدة

قبل أن تخرج على مائدة هذا العالم قام أصحاب الظّل بصنع لك (أنا) جديدة، وقامت تلك الأيادي الخفية ببرمجة هذه (الأنا) في عقلك اللّاواعي منذ نعومة أظافرك عبر الواقع الحقيقي والافتراضي، لتصبح في النهاية (أنت) لست (أنت)، فلقد قاموا بصنع لك (أنا) جديدة.

هذه (الأنا الحقيقية) عندما تسقط في تلك (الأنا المزيّفة) وتتوه هذه (الأنا الحقيقية) داخل تلك (الأنا المزيّفة) وتصبح تلك (الأنا) لا تعرف من (أنت) لتشرع بعدها هذه (الأنا) تبحث وتفتّش عن تلك (الأنا)، ولكن في النهاية لا تعلم هذه (الأنا) هل "أنا هو أنا"، أم "أنا لست أنا".

معظم العقليّات العربيّة والغربيّة فقدت ماهيّتها، وخسرت ذاتها، وضيّعت جوهرها، وتاهت عن حقيقتها.

باختصار.. نحن تخلّينا عنّا.

عندما يصنعون لك (أنا) جديدة، ويدرك ذلك المفكّر أنّه ليس هو، فيشرع نحو حرب هذه (الأنا)، وتتحول لصراع مع هذا العالم والمنظومة السائدة.

في وجه المفكر المتمرد تكثر اللّلكمات الوجودية، وتتعاظم القسوة بناءً على مدى تهديد أفكاره من إقصاء وتهميش، وتشويه ووصم، وملاحقة واضطهاد، ليبدأ بعد مُدّه يتماشى مع هذه (الأنا) ويتماهى مع هذا التّصميم، ويدبّ ويدجّ فيه قِدما حتّى يصبح في مأزق.

ليقع بعدها ضحيّة للتّقليد والمحاكاة، وتصبح بعدها (أنت) لكن بحلّة جديدة. وتصبح هذه (الأنا) التي تَستفحل وتُختزل فيك، يتبعها تَتْمِيم وفائض من غيرك.

لقد غفل الخليفة أنّه هنا لغاية، وأنّه هنا خطة، لأنّه يدخل من باب الحياة مسيّر، ويخرج منه أيضا مسيّر.

في النّهاية:

1 % يتحكّمون في العالم

4 % يتم تحريكهم كالدّمى

90 % غافلون

5 % مفكّرون ومدركون لما يحدث من حولهم ويعلمون الحقيقة

((باختصار.. الأحداث كلّها في هذا العالم تدور حول توظيف ال 4 % من قبل ال 1 % لمنع 5 % من إيقاظ ال 90 %))

# المعزل العميق

نحن الغرباء في عتمة هذه الغرفة، نحن:

شوبنهاور، الذي كان يرى في العزلة قدرًا للنفوس العظيمة..

نيتشه، الذي فر إلى جبال سيلس ماريا هربًا من ثقل البشر..

سارتر، الذي اعتبر أن الجحيم هم الآخرون..

أفلاطون، الذي دأب في رحله تأملية شبيهة بأسطورة الكهف..

في عتمة هذه الغرفة..

حينما لا يبقى سوى صوت أنفاسي المتسارعة في عتمة هذه الغرفة، أجده حكمة (مانديلا) وثورة (جيفارا) ورحمة (ليو تولستوي) وإنسانيّة (شفايترز) وحريّة (هوجو) وعبقريّة (هوكينز)..

في عتمة هذه الغرفة..

يقف صوتي كبرزخ بين واقعيّة (أرسطو) ومثاليّة (أفلاطون)، كمدينة تسكنها المجانين، تنطلق منها الأقلام المُبهمة، وتغوص داخل معجزة الاستيقاظ في عالم المعجزات..

في عتمة هذه الغرفة..

يأتي الأرق ويحملني بين ذراعيه، هذا المجنون الذي أصبح صديقا لي، له طريقته الرّومنسيّة بأن يجعلني وحيداً وطريحاً لهذا السّرير، يشاركه الحفلة "الخوف" ذاك المجنون الآخر الذي يجعلني أعشق اللّيل وأواصل النوم وأنا مستيقظ..

في عتمة هذه الغرفة..

تقام حفلة على أرض احدى أحلامي، ولا أريد أن أحضر هذه الحفلة، لأنّني أنا الحفلة التي سيرقص على ساحتها وعلى أرضها صديقي الوحش الأسود، ومن ألقى على ظهري من أقرباء وأصدقاء وزملاء وأحبّاء ذلك الفيل العملاق.

في عتمة هذه الغرفة..

أستيقظ من كوابيس تلاحقني، كصديق للجميع ولا صديق لي..

أستيقظ وقد اتخذت الله سبحانه صديقاً لي..

# هكذا قال لي صديقي

أحسدك..

أحسدك.. بهذه الكلمة بدأ صديقي.. قال لي:

((أحسدك.. داخل تجمعاتنا السريّة، وخارج مناسباتنا المخفية..

أحسدك.. يا من تتدافع في ذهني كموجة علمية تُسبب فيضانات بحرية، وريح أدبية تُسبب تغيرات جوية..

أحسدك.. فلم تكن في نظري سوى تسونامي يتسلل من بابي ليحدث زلزالا وانفجارات بركانية))..

عندما انتهى صديقي.. شعرت أنني كنت في قلب قصر بارد يسكنه وجه جاف..

اعذرني يا من كنت صديقي.. فكيف أصل الى رام الله، وأين هي جنين؟ وماذا بقي من شيكلايو ان انحرف الآخر؟! وكيف يفسر سارتر حينها موت الصداقة؟!

كنت اضعك وجها لكوكب الأرض، وكنت تحرقني قبساً في أرضها.

أي داء أنت يا من كنت صديقي؟! وهل يمكن أن أغسل وجها كنت أظنه في يوم من الأيام صديقي؟!

# ماذا لو كنت برتقالة

لو كنت برتقالة.. لكنت فعلا وجوديا في فمك، ولجعلتك تفكك الكوكب في قضمه واحدة مني، فمع أول غرسة لأظفرك في قشرتي البرتقالية، سينطلق رذاذي ويُشعل ذاكرتك العصبية..

ستذوب بين النقيضين تحت غلافي، ستتخدر حواسك من سكّري، وسيبرد لسانك بوخزة من حامضي..

كل ما وجد في دائرتي هو كينونة قائمة بذاتها، فلا تمارس معي لعبة التخلي، وأنا أتابع نظراتك نحو قدّي وخطواتك نحو مسجدي..

لا تلعب معي لعبة التخلي، فأنا معك أنت بالذات..

# أين هي يسألني الخريف

كيف حالها.. يسألني الرصيف عنها..

هذا الرصيف الصامت الذي شَهِدَ يوماً خطواتنا الأولى معاً، كساه الحنين، وأخذتني حجارته الحزينة لملامح خريف جاف.

أين هي يسألني الخريف؟

فأجبته: ضاعت!

فقال لي: وشجرة الزيتون؟

فأجبته: خلعت رداءَها الأخضرَ، وارتدت أسودَ الليلِ الحالك.

انحنى الخريف نحوها، وقال لي: أيعدون ضياعها شيئا عاديّاً؟

فقلت له: كأي لعبة عادية.

تنهّد الرصيف، وبنبرةٍ ملأَها الرعشة همسَ قائلاً:

مَن يقومُ بتصفيفِ شعرِها الأخاذ يا ترى؟! أم أنَّ هناك يداً غريبةً باتتْ تلمسُ ذاك الحرير؟.

ارتبكت كثيرا بعد سؤال الرصيف، ووقفت طويلا عند عينيها، أتذكر فشلنا وانتحارنا الوهمي.

خسارة.. لم يكن هناك أجمل من وجهها.

وجهها الذي مازال بوابة للمطلق والمجرّد، والمساحة التي يلتقي فيها الفيزيائي بالميتافيزيقي.

نظرت الى ملامح الخريف البائسة كبؤسي، وقلت: أعلم أن وجهها الحدث الفلسفي الأهم، لأنه يحمل الهوية ويعبر عن الوجود الإنساني في أعمق صوره، لكن، أين نعلق تعاستنا بعد هذه الفاجعة الأنطولوجية الكبرى، وبعد أن أصبحت الذاكرة عبئاً ميتافيزيقياً؟ ومتى نجاهد أنفسنا لترميم ملامح أرض تتفلت من بين أقذر الأصابع عبر هذا الزمن؟!

# حتى الصداقة أحيانا نصيب

الصداقة ليست من الصفات البيولوجية، وهي مفهوم بعيد جدا عن البقائية، كما أن الصداقة لا ينظر من خلالها الى ما في بطن الانسان، لكن يُنظر من خلالها الى ما في عقله، لذلك الصداقة خِلاف وليس وفاق، وهي انعزالية وليست وئامية.

لكن الصداقة حقيقةً هي مفهوم يُضفي على الإنسانية مفهومها ليصبح لديها معنى، ولذلك أعتقد شخصياً أن الصداقة مفهوم يجعل للعلائقية معنى.

وأن تسعى وأن تحظى بصديق في زمن وأد فيه الصديق معنى الصداقة ولم يتبقى منها سوى صورتها فهذه معجزة، وأن تحفر تحت هذا المعنى لإصلاح هذه الصورة وتعريفها من جديد فإن هذا منتهى السذاجة في تعريف المعرّف والمعروف.

لذلك.. لا أخفيكم إن قلت لكم: "حتى الصداقة أحيانا نصيب".

# أنا الذي لم أختر أن أكون أنا

مجنون بالأفكار..

أنا الذي لم أختر أن أكون أنا..

وها أنت تصيّرني إليك، ها أنت تصيّرني الي..

تبا لك.. كم كنت بارد الحنايا، وكم كنت أنا غريب الأطوار!!

# وهل يموت البطل

يعود اسمه ليثير فزعي، تُحيط الميتافيزيقيا في كل شيء يتعلق به، وذات ليلة استدرجني، وكان الشعور ابانها ينخر في الأعماق.

كنت أدرك غور هذه اللحظة البيولوجية، شعور مخيف ومرعب بِسحنة الأمومة، قتل فيها سنوات كفاحي.. بل قتل فيها سنواتي..

وهذه ميزة هذا الكائن الغريب، أنه يمتاز بوعيه المسبق بحتمية نهايته، وخلق مفارقته الوجودية، كيف لا وهو كائن من أجل الموت..

حينما نكون نحن موجودين، لا يكون هو، وحينما يكون هو لا نكون نحن موجودين..

وهل يموت بطل هذه الرواية الكونية عند موته، أم عندما يُنسى؟!

# الحبيب يقتل حبيبه

ها أنت خلفي.. تلبس وجها آخر، وترتدي أمامي قناع التطهير، ذات القناع الذي شاهدته في كل حلقة من مسلسلك الجنوني.

أكنت تخالني أبلهاً في الحب؟ أم أنني غافل عن هذا القناع ذو الابتسامة المبالغ فيها!

يا قاتلي المبتسم.. قناعك هذا لن يحجب مكياجك الأخلاقي، بقدر ما كان يحاول اخفاء تناقض التصاقك المفرط بقَدّي كقشرة الحضارة الزائفة.

بأي سلاح تود قتلي هذه المرة؟! من إيروس إلى ثاناتوس كل حبيب قتل حبيبه، فغالبا من كنا نظنهم الحياة كانوا هم الموت لنا.

كنت أعلم عندما أطلقت الرصاصة الأخيرة نحوي، أنها كانت لتحريرك، وبدافع الإبقاء على الحب، وأعلم أن جريمتك المغفورة في قلبي كانت لعلة تخليد اللحظة، وجعلي حكراً على الذاكرة، وأعرف أن قمة الحقارة في الحب عندما يصبح إنهاء وجود الحبيب الطريقة الوحيدة لضمان عدم رحيله أو خيانته.

لكننا مع كل ذلك لا نفتح أبواب باريس إلا لمن نحب، ولا نكون المأدبة الأفلاطونية الا لحقيقة لاهوتية ستغتالنا.

ها أنا في انتظار غودو.. أبحث عنك في حبات المطر، في قصة كاذبة لبوريس، ودعاء مُعلق في وجه القمر.

أجمع الأدب المبعثر فيك، لعله تحول من حبر لإنسان، لعل الروح تنفث فيه، لعل الحياة تعود اليك، لعل الحياة تعود إلي.

أكتب عنك وأسقط شهيداً في حكاياتك، في مقبرة أعرف أنك لن تزورها، وأنت تعلم أنني لم أختر أن أكون كاتبا أو شهيداً، أنت الذي اخترت!!

أرسلت لي طفلا مسيحيا يلعن القدر، ثم وضعت لي برقية مجهولة فوق ذلك الحجر.

جعلتني أسير ببطء لوطن كنت أظنه قصيدة لشكسبير، وإذا به ينفجر في وجهي كأنشودة حزينة في بيت مهجور صغير!

لن أنتظر غودو.. واليوم أُغلق شُرفة مدينتي وأعلن استقلالي.. تزحف باريس إلي، وتضحك فيرونا في وجهي.

وتنضم كل المدن لتشعل ثورة الحب، وتتسابق الجيوش نحو الشهادة، ويتساقط المحبون كأوراق الخريف في غرناطة قلبي.

في المعركة التي قُتل فيها حبيبي الأخير تجلّت الحقيقة، وعرفت حينها لماذا الحبيب يقتل حبيبه، أو يستشهد في سبيله.. فعذرته، وزرت قبره، أتعلمون لماذا؟

لأن الحب هو الثورة الوحيدة التي ينهزم فيها المحبوب طواعية لينتصر الحبيب.

# لا تلعن القدر

ها أنت تلهث وراء بائد فارق الحياة.. خلف ذاكرة غادرة حشوة الرأس.

أتدري أنه كان هناك من يلعنك، أكنت تدري أنه صرخ صرخة العبث، ثم راح يبحث عن المعنى بين ضمير ميت وصمت الكون البارد.

يعبث في المصادفات تارة، وينشأ من بين التناقضات تارة أخرى.

يلعن القدر وقد كان طرفا رئيسيا فيه، يلحق بجبريته كضحية لنص مكتوب فيه، كبطل مكره على خشبة مسرح مضبوط بحتمية الطبيعة وقوانين ميتافيزيقية تجرف جسده المبلل المُتَلَبِّث أن يجف في يوم من الأيام.

إن اللعنة هنا هي اعتراف أن القدر هو الخصم، لكن ماذا لو كانت هذه اللعنة هي غضب عقيم سيزيفي، حكم عليه القدر بدحرجة صخرة إلى قمة الجبل للأبد.

لكن أدرك سيزيف في النهاية أن هذه عاقبته، فقرر ألا يلعن صخرته ولا يلعن الآلهة التي عاقبته، بل تقبل وزرها وسار خلف صخرته ليكون سيد تجربته الخاصة، حتى وإن كانت التجربة منبرا سوداويا كهوكينج أو كافكا أو أبو العلاء المعري أو جون ناش.

لا تلعن القدر، بل تصالح معه.

# ميعاد الثورة

أليست مستودع للقهر، للابتسامات الهاربة، للآمال الضائعة، لخبر ماض وحكاية منسية.

فيها استدرجتني الى ارتكاب الحماقات، واستدعاء حرب قديمة لإعادة صياغة التاريخ وتدمير المألوف الحسي الذي انتهى بسقوط جثماني شهيدا.

في الذاكرة، كان ميعادي مع الثورة وحرب التحرير، كانت مُترعة بالانفعالات وزاخرة بالوجدانات.

بين تفاصيلها استوقفتني فاصلة من الألم، ونقطة من بسمة، وفائض من الأحاسيس المنفصمة والأشباح التي تطاردني، وتعلن انزياحي عن الوجود.

لقد دفعتني الى ثورة معي، الى ثورة مع الذاكرة، الى لحظة حتمية ترفض الركود، الى فعل فلسفي غايته التطهير، الى مظاهرة غبية أسقط فيها أسيرا.

في زنزانة الخيبات هذه والانتظار المرير، قررت أن أغلق النافذة، واسقط القداسة، وأعلن نهايتك، وأعلن نهايتي..

# ألقي بجثماني عليها

ألقي بجثماني على عقد أخلاقي وإنساني غير مكتوب، على مفارقة فلسفية حادة وذنب الهوية الذي لا يُغتفر.

على رقعة مقدسة دفنت فيها، تركت على أرضها مسجداً مقهوراً ينادي النبي.، وكنيسة ضائعة تنتظر عودة المسيح، وولد لي يواجه أثقل الأسئلة عارياً.

ألقي بجثماني على ثوبي الوجودي، على رصاصة تبحث عني في كل مكان، وتجعلني يتيماً على الدوام.

ألقي بجثماني عليها..

ألقي بجثماني عليها دائما، وأبداً، ودون استثناءات، وكأنني أريد أن اجعلها شاهدا على محرقتي.

# سيمياء الحرف والوجود

يُمثل حرفه جسراً أنطولوجياً وميتافيزيقياً وابستمولوجيّاً يجمع ما بين الطبيعة وما ورائها والمعرفة فيها، وتتجاوز دلالته اللغوية والنحوية كحرف تعليلي أو توكيدي لتجسد رؤية فلسفية عميقة للسبب وللوجود، الغائية، الصيرورة، الوقت، والانكشاف الوجودي بين نمطين متناقضين حول اليقين والإنكار، لكنهم لم ينتبهوا له؟

كيف لم ينتبه الناس لحرفك الذي تجاوز حدود المادة؟! كيف لم يخجلوا أمام وقار تجلياته وسط سيروس السماء، نفحات القدر من إمساك وعطاء، بين معشر العصافير وخرير الماء.

كيف لم ينخرطوا في الاشتباك الأنطولوجي والمعرفي مع حرفك المقدس؟!

هل فقدنا الحياء؟! أم أن أرواحنا نزحت نحو عجل مادي ملموس أعيد إنتاجه بأشكال وصور شتى على انه الترياق والدواء؟!

إذا كان القديم مصبوغاً من ذهب، فالحديث خروا له سُجداً وجعلوا له الولد.

منذ غياب موسى تدخل المهندس الأيديولوجي وأبدع إلهاً يمنح الجماهير طمأنينة بصرية وفورية، وصنع هالة مقدسة حول فكرة شمولية جامدة من بشر وحجر، وانقاد الكوكب نحو هذا الوثن الملموس.

وما حدث هو فعل استقالة جماعية للعقل، لكن العبادة في جوهرها الفلسفي هي إعلان التناغم بين المحدود واللامحدود.

أما بالنسبة لي.. فقد اخترتك حبيباً لا يموت، لأنك أنت من جعل مشاوري في هذه الحياة من مجرد عبث بيولوجي إلى رحلة مقدسة نحو لقائك..

# نحن أطفال هذه الأرض

نحن أطفال هذه الأرض.. نقطع شجرة صوفية عمرها 500 عام، لكي نحصل على 100 دولار في اليوم التالي؟!

# شيء ليس كالأشياء

ميلادي، حياتي، نومي، موتي، كلها أشياء. لكن موعدي بك ليس كهاته الأشياء، ولا أعلم هل سيكون بقشرة موز، أم في بطن حوت، أم داخل حفرة، أم من حبة دواء؟!

أمام هذه العقدة الأنطولوجية الكبرى في وعيي سيباغتني هو بمنجله المألوف، ويخطف دهاليزي الخفية، ويغلق نافذة الجسد.

في هذا الزمن الكرونولوجي الذي يلتهم أبناءه، ستتجلى ضربة منجله الخاطفة التي ستسقط أمامها كل الفوارق الثقافية والسياسية والبشرية، وسينهار كل شيء دون مبرر منطقي مفهوم؟!

لكني إزاء هذه القفزة المفاجئة من الوجود إلى وجود آخر، سأعتبر المنجل أداة للتحرير، لأن أثيري المعتقل في هيكل الجسد المادي ينتظر ضربة هذا المنجل الخاطفة، لأنها ستبتر قيودي الفانية، وتحرر الطائر الحبيس في أحشائي ليعود إلى أصله الأنطولوجي الأول نحو شيء ليس كالأشياء.

# لتبصريني كما أنا

عنوة عمّا جرى.. يشجيني يا دنيا أن أمنحك في برقية دمثة بعض جنوني، وأعلم أنك تبغضين السخافة وتمقتين كل مشاغب وغير مأدب، لكني لن أقدم لك عتة أو فوضى أو غياباً للعقل، بل سأهديك أثمن ما أملك.

سأكشف لك حقيقتي العارية، وأمنحك روحي في أوج تجلياتها الصادقة والفريدة والجنونية، ففي الجنون أحياناً عقل.

أمام نجلاء عينيك سألقي بسلاحي جانباً، وسأخلع كل دروعي، وأرفع الحجب عن جروحي، وأعلن الاستسلام الأجمل في التاريخ، فالجسد كوليمة للحب لابد له من فاتحة ليست كالفاتحات.

إلا أن فاتحتي معك ليست معضلتي معي، لأن الوقوف أمامكِ بلا زيف وبلا حسابات، هي الخسارة الوحيدة والأجمل وأسمى أنواع النهايات.

# أحدّثُ عنك نفسي

حينما أتكلم عنك قل لي بربك من أين أبدأ؟ من أين أبدأ؟ وكيف لكائن صغير أن يختصر العالم في حضور واحد!

من أين أتيت؟ وكيف أتيت؟ وكيف لك أن تجمع البداية بالنهاية؟

عندما قررت أن أتكلم عنك، أن أكتب عنك، وجدت أن الكتابة عنك ليست أمراً سهلاً، فعمّن يا كينونة ألغت المسافات والزمن أكتب؟!

عن نطفة كنت أحسبها مجرد عاطفة عابرة؟! أم عن نقطة تحولت لنظرية فلسفية طارئة؟!

فراغي لا يمتلئ الا بك، ولو سألتني من أين أبدأ، سأقول لك:

الحديث عنك لا ينتهي، لأنك ببساطة البداية لكل شيء جميل بالنسبة لي.

# حكايتي مع معادلة فيزيائية

لحكايتي معك الجم من الخواتيم، خارج حدود التوقعات، كخطين متوازيين قُدر لهما بـ "معجزة فيزيائية" أن يلتقيا، مجهول يذوب في الآخر، لكن المشكلة في الثوابت، فدائما ما كانت تمثل الثوابت في الفيزياء -كثابت بلانك- الركائز الوجودية وفكرة المطلق في كون دائم التغيير.

غالبا ما يكون هذا الثابت قيمة دقيقة ومستقرة تحدد قواعد العلاقة بين المتغيرات الفيزيائية وتغير سلوكها، هذه المتغيرات التي تعتبر لغة التحوير المستمر في الكون، وتعبر عن ديناميكية النظام الطبيعي الذي لا يهدأ، وكذلك نحن!

بعد نهايتنا الغير المتوقعة والتي تمثل تجسيداً صارخاً لـ "مفارقة العبث"، أخبريني اليوم بأي اسم أناديك؟ بأي قانون أضعك؟ وأي متغير يشبهك؟

أخبرني أين أجدك؟ أتأملك في حالة فيزيائي، بين الصلب والسائل، بين السائل والغاز، بين الغاز والبلازما.

مازلت ثابتاً كالنقطة الحرارية الثلاثية في الفيزياء، أفتش عن حضور مكثف لشيء لم يعد موجوداً، فكيف تحول حضورك الطاغي في حياتي إلى غياب أعمق؟! غياب يشبه الفراغ الميتافيزيقي الذي يتأمله آينشتاين.

لا أعلم كيف تحولت تلك الصغيرة الى معادلة فيزيائية والى متغير فيها؟ ولماذا لم تكوني الثابت فيها؟!

يمكن إسقاطك في احدى المعادلات الفيزيائية الكونية، كمعادلات فريدمان، أو ربما كمعادلة أينشتاين للحقل في النسبية العامة، والتي أعتقد أنك تجسدين الثقوب السوداء فيها.

أتعلمين.. في قلب الثقب الأسود تقع "المفردة" وتنهار قوانين الفيزياء المعروفة ويتوقف الزمن، وأنت مفردة هذه العلاقة، ومن كانت سببا في انعدام الاتجاهات وأن يفقد الكون بهجته.

لقد كانت هذه النهاية اللطيفة فوضى فيزيائية لصدفة عابرة، وحاضرة غائبة، منحتني يوماً فرصة لأشاهد رقصة لأغرب معادلة فيزيائية، ولأمنح نفسي فرصة لمعادلة فيزيائية أخرى.

# سؤال الإهلال

هل يمكن أن تمحيه من حافظتك؟ لقد كان هذا السؤال منذ الإهلال، هل باستطاعتك أن تحذفه؟!

هذه البريّة هي الأشد إلحاحاً بالرغبة في محوه، فتصرخ أمام هذا الشيء المفارق محاولة شطب عمره من عمرها، تسعى برغبتها الدفينة سيادة المطلق وإعلان الاستقلال التام عنه..

ولا أخفيكم، أن هذه المحاولة الفلسفية هي الأكثر جرأة في مواجهة المطلق، وسعي إلغاءه من تفاصيل الحياة اليومية ومن وعي الأيام، لمنح الكون فرصة الولادة المادية، لكنها أيضا الأكثر مأساوية وعجزاً وإخفاقاً على الإطلاق!

ماذا سيحدث حينها؟! وهل مسعى هذه البرية نحو تأميم الزمان وتحوير الوجود الى حركة ميكانيكية تحكمها القوانين الفيزيائية هو الخلاص؟!

وماذا سيكون لو طردت البريّة هذا الرفيق الغير عادي من صفحاتها، هل يمكنهم نسيانه حينها؟!

ستفتح أبواب العدمية المرعبة على مصراعيها، وستفقد الأيام وجهتها، وستتحول البرية الى صدف تتآكل دون أي معنى.

الأهم من ذلك أنها لن تتمكن من نسيانه، وستبحث عن أي مُقدس بديل لاحتياجها الروحاني الى معنى، ولن تجد البديل.

وأمام نهايتها سيقف الموت ليقصم مركزيتها وستستيقظ من سكرتها، لتجد نفسها انها فشلت في إقصاء المطلق، وأنه الرحمة الأخيرة لإنقاذها من الفقر الوجودي رغما عنها.

# هسهسة الحرباء

من ذاكرة مضت، من حُصينها خرجت أغنية حمراء، تشبه بشرة المايا، وتربة تلك العاصمة الخضراء.

كانت المسافة بين البشرة والتربة 300 ألف عام، وما زاد الطينة بلة أن هذه الأغنية خرجت بصوت ذلك الهسيس المبحوح كصوت أي حرباء.

حرباء دبّت في نفسها نفس خبيثة، وارتوت بمذهبهم حتى خبا نورها وأضحت فرضية عبثية يصاب بها المارة بلوثة سبينوزا وأحادية الضوضاء.

حرصت هذه الحرباء على إظهار صوتها، وأن تغني حمراؤها فوق تعاقب الأجيال، ورغم اختلاف الخشبة والزمن، فقد أصغى لها التماثيل دون نقد أو جهد أو أي عناء.

بهسهستها أذابت الحجر والشجر، وأطربت العصافير وجفّفت البحر، وأخرجت الإنسان المعاصر من حالة الخليفة، الى حالة الخيانة والشقاء.

عبرت ببحتها الدول والقارات، وطبعت فرعونيتها على صفحة التاريخ، ثم ارتدت الإزار وطافت حول الكعبة، وعادت الى عشها كالنقية العذراء.

وضعت بيضها، وأنجبت ثلاثة أبناء، خرجوا كالإنجليز يصبون الدكتاتورية كرسائل حب من فوق تربة الضيافة، وابن فلستيبا يهتف بحمية ويهز بكتفه، ويخرج من جوفه صورة عالقة في ذاكرة هذه الحرباء.

# بائع مصاحف جوّال

أقبل على أمه المذهولة بثياب بيضاء، على الشق الأيسر من الكتف تلوح كوفية سوداء، وعلى الأيمن من الكتف تضيء شمس صفراء.

لم تصدق الأم ما رأته بعينها، وقفت على عتبة العباءة تتأمل الكوفية، ثم توجهت بعينها الى الشمس، تنظر إلى ابنها وكأنها تنظر إلى مرآة للوجود.

سافرت بالزمن مسارات التاريخ، مشت فوق جسر الطين والأرض عبر الكوفية، ثم قفزت به نحو شمس لا تغرب، وكأنها أمام كائن رمزي لم يعد مجرد قطب من طينها، بل صار فكرة من حلمها.

عندما عادت الى الأرض اندهشت أكثر، لأنها رأت فيه برزخاً فلسفياً صامتاً، أرادت احتضانه، فامتنع عن تلبية العاطفة؛ خشية اقتحامها الغيب.

وفي الحقيقة، لم يكن سوى بائع مصاحف جوَّال، في الأربعون من العمر، فاح عبيره وانتشر، وهيمن على الأرصفة والشوارع.

عل احدى الأرصفة، وبعد عدة أيام هبط الروح، وعزف معزوفته، فخُلع الرداء، ليسير نحو أمه هذه المرة عارياً لتغطيه.

# مذهبي الوجودي

في محراب الحب.. أجد نفسي مجبولة بفطرتها على حبك يا سيد الكلمات.

تلتف بصيرتي نحوك، يامن تخطى حُسْنُه وبَهَاؤُه جل الميادين والممرات.

عشت في مكة المكرمة فكرمها، هاجرت الى المدينة فشرفتها، زرت القدس فنورتها.

يا من كنت في فؤادي شريعة فحركتها، وكنت في روحي نفحة فعطرتها، وكنت في عمري لوحة فأبكيتها.

لماذا أبكيتها يا رسول الله؟ لأن عمري يغفوا في غيابك على وسادة من وحشة، ويستيقظ على سواد وظلمة.

ما أبشع الدنيا وأنت لست فيها، ما أبشع الدنيا حين تخلو من خطاك، ولا أعلم كيف أسير فيها.

تائه كيتيم على مأدبة اللئام، ألقي بجثماني على حراء مستيقظ أسر لصوتك والناس نيام.

ما أحوجنا اليك يا فؤادي، وما أفقرنا اليك يا ودادي، يامن كنت ومازلت مذهبي الوجودي، ومعادلتي الكونية التي تفسر علاقتي بكل شيء.

يا صلاة غسلت بها ران قلبي ودرن ماديتي ارفق بحالي، فوالله ما طلعت شمس ولا غربت الا وحبك مقرون بأنفاسي، ولا جلست الى قوم أحدثهم إلا وأن حديثي بين جلاسي.

# أنياب ناعمة

لم تكن المعرفة فيهم حقيقة وقتها، بل حقارة أدبية تستر في بطنها غريزة حيوانية، ألم يكن كريح هبّت من خلف جدار النوايا العارية نحو معارك وهمية في عتمة المحابر الزائفة؟!

لا أعلم أين المنتهى، لكني اجتمعت به مرّة في قاعة حمراء، في مؤتمر يجتمع حول مأدبتها أنياب ناعمة وذئاب أنيقة، وكان هو الجرو بينهم، يقف حارسًا على طاولة دائرية من خشبة زائفة طوباوية.

كنت أنظر إليهم، الى أقنعة الطين والغبار، الى ابتساماتهم الدبلوماسية ورماد أحرفهم المنسية.

وحيث كان يُمارس الأذى تحت مسمى النصح خلف هذه الأقنعة الاجتماعية، كانت روح الجرو تتآكل في هذا المسرح، فقد كانت رؤيته لصفحة وجهي كافية لكشف جرائمه الأدبية التي تغذى بها على دماء النصوص الأخرى.

كانت الوجود في هذا المكان تشبه بعضها البعض، ولم أستطع أن أستمر بين شهوة الحضور هذه وعدميتها الإبداعية، كائنات هجينة اسما ومضمونا تُشرعن أنفسها بثوب أبيض، ولكنهم حقيقة حرابيّ تتقن فلسفة التخفي والمسخ الإبداعي.

قلت لكم حينها أن الطبيعة الطفيلية لهذا الجمع الذي يحرسه الجرو هو حالة من عدم الأصالة المطلقة والعجز عن الصدور بمعناه الخاص، فتلجؤون إلى امتصاص المعنى الذي جاهد غيركم لتشكيله.

وكانت كلماتي هذه هي هويتكم ككائنات طفيلية لا يمكنها البقاء على قيد الحياة إلا إذا مات العائل، ولذلك أصدرتم قراراً بموتي في هذا المؤتمر.

# رقعة تعريفية

وثيقة كقاعدة كونية، كتضحية أو إهمال، نحو ذروتها الأنانية..

رقعة تعريفية، تنهار في بحرها الثقافة، وتنطلق من نواتها اللاأخلاقية..

أزلتموها من الهوية، وكشفتم عقبها أعظم أزمة وجودية..

ولم تتعلم البشرية، أن أمجاد أرض الفكر سرعان ما ستنهار أمام محكمتها التاريخية..

أمام مُفارق يداول الأيام ويغير الفصول، ويُبقي عُصعصها متجذر ليوم تقف فيه أمام حقيقتها الأبدية..

# واحة صمت

كواحدة من أندر الظواهر الوجودية كنت الأكثر غموضاً وخارج التصنيف، تأبى أن تُختزل في تعريف ضيق أو مهنة، وتتسلح بالصمت لامتلاء المعنى لا لغياب الموقف.

الغموض حينما يصطدم بعائق الفرضيات لا يمكن توقعه أو تكهّن خطواته القادمة، الببليوغرافي لا يمكنها حصره، وكالهيكيكوموري يختفي ويستحيل ترويضه معرفيّاً.

كعادةِ جنوني رحت أستدعي استجلاء واحة صمت رماها القدر في جهي.

أخطوا نحو مجهولك مضطرباً، وأمام تفاصيلك مُتحيّراً، أنسج الاحتمالات إزاء كتاب مغلق، لعلني أتمكن من فك شيفرة هذه المسافة الساحرة.

عندما مددت يدي لمصافحته وتلاقت فيها كفّي بكفّه، أردت أن ألقي صخرة في ركود تلك الروح الغامضة، فقلت له: "لماذا يوجد شيء بدلاً من لا شيء؟".

أخذ يتفحصني، ثم ارتسمت على شفتيه نصف ابتسامة، وفي تلك اللحظة التي حضرت بعد تلاقُح الكفين، اختفى هذا الغامض الذي دخل حياتك فجأة!

شعرت أن هذه المصافحة لم تكن عارضة، بل كانت تماسّاً حاداً بين عالمين، وسألت نفسي: "هل كان الغامض هنا حقاً؟ أم أنه سراباً صنعته مرايا عقلي؟".

أيّاً كان، فقد رحل بلا إجابة، لكنه علمني أن قيمة السؤال الوجودي ليست في العثور على جواب، بل في الجرأة على طرحه والعيش في فراغه.

# المخاض الراديكالي

رحت أتابعك بنفسي وأتساءل:

أيعقل أن تكون ذلك الطفل الذي بدأت ملامحه الثيولوجية تتشكل تحت سماء سلطنة الدرعية؟ أم أنك الذي عانى من الاغتراب الهايدغري، وقُذف في وسط إمارة شرق عربي لا يشبهه؟

هل كنت ذلك الذي وضعه آل كنعان في منظومة أنطولوجية كاملة تتغذى سيسيولوجيا على تدمير الجمال والمنطق، وتفرض على الفرد المفكر عزلة خانقة؟ أم ذلك الأخير الذي بدأ يخط أولى علاماته الشكوكية أمام أهرامات إيدبوى وأحجار تاوي الصامتة منذ آلاف السنين؟

هل وجد فيك هيراكليتوس ضالته؟ وهل حقا أنك تُشبه المفهوم الهيراقليطي، لأن مياهاً جديدة تتدفق عليك باستمرار؟ أم أنك فيلسوف المدرسة الإيلية كما رآك صاحبها بارمنيدس؟

في كوكب يدور وتلتحم فيه أناي بالآدمية في تجربة سارترية وسط ضجيج أنطولوجي يدفعني السؤال: "أين أنا في وطن مثقل بعبثية البيروقراطية؟ ومن أنا في وسط فوضى هذه الدواوينية؟".

بمرور سنوات هذا التوتر الديناميكي، جاء المخاض الراديكالي الذاتي أخيراً، بلحظة شك كبرى في ليلة سكون ميتافيزيقية وهبها الرب سبحانه لي. لأدرك أن ثباتي الوحيد يكمن في قدرتي على التغير، وأن هويتي ليست جوهراً جامداً، بل هي السيرورة ذاتها التي تنتهي اليك يا مولاي.

علمت أنني أنا النهر، وأنا الماء، وأنا العابر الذي يكتشف نفسه مع كل تدفق جديد.

# أبهرني اكتشافه

من منكما هو؟!

لا أعلم هل سينفك هذا الزواج المقدس بين هذين القطبين لو عرفتك، أم لا؟!

في اليوم الذي اقتربت به منك، ووقفت أمام المرآة كي أزيل الغبار عن أقصى درجات التيه بين الديونيسية والأبولونية، وجدتها مشروخة تعكس ملامح متعددة لشخص واحد!

لعنة تجاوزت السائد، وهبة بملامح دينية، ثقافية، أدبية، علمية، سياسية، فنية، اجتماعية، متنوعة كثيرة، تحمل في دهاليزها أسئلة غزيرة.

مُدن شتى تزور إكسبو الإيروتيتكس هذا، لكن سرعان ما يفرون من مسحة الجنون في خيوطه، لاحتوائها على تناقضات صارخة تعمل على تحطيم القوالب الجاهزة التي تُقررها الأنثروبولوجيا في جيل الألفا الآني.

لم يَتردد في خَلَدي أنك نسيج من مداهمات منطقية ومباغتات تجريبية ورجفة من معرفة بديهية استبدادية.

كل ما أردته أن أقترب منك؟ أن أعرف من أنت؟

ومازلت أتساءل: "من أنت؟".

# معالج لا يرحم

كان يشعر بذلك الصباح بدهشة باردة، غيّبت أي رد فعل عاطفي ساخن.

اليوم يرتجف، قشعريرة في قلب الهواء، الطرق غائصة في صمت رمادي، والأجمة تنفض ما تبقى من كبريائها أمام معالج لا يرحم.

انكمش على برده وصمته، ولم يلقي أي بال لهذا الصباح، فقد كان ينتظر إقبال الليل ليتحرك بجثمانه نحو معالج لا يرحم.

عندما خيم الليل بسدوله المظلمة، بدأت رحلته.

غرفة ضيقة، كسجن لمواجهة الذات، وبملامح جامدة يشقها الليل كإزميل كان يجلس المعالج مقابله.

كان يريد أن يلقي بجثمانه على وطن يأمل ألا يخذله. يحاول كي مباضع كلامية قاسية، وشظايا روح مبعثرة، لكن من وحدة أخرى الى وحدة أخرى، ومن عزلة أخرى الى عزلة أخرى، كان هذا الوطن يثبت أنه لم يعد له.

عكس هذا الوطن كل مخاوفه، وخرج من حضنه يكسوه الليل وبرده.

وكالعادة.. بقي جزءاً منه في تلك العيادة.

# معنى المحمدية

ثلاثة وستون كان عمر ذلك الطفل، أسماه والديه دون إجراء إداري ب "محمد"، كان فيه رمزية مركزية تتجاوز كونه اسماً علماً، لكنه كان حقلا دلالياً مشحوناً بالعناء والتحديات.

طفل يحمل ثقلاً رمزياً وأخلاقياً هائلاً، ليس مجرد لافتة صوتية كغيره، بل يرتبط بأنطولوجيا الأرض الفلسفية واللغوية، وبناء الهوية وتوجيه البشرية.

في الفلسفة الوجودية فإن الوجود يسبق الماهية، لكن مع "محمد" فإن الماهية تسبق الوجود.

لقد نزل عليه الوحي في ليلة القدر من شهر رمضان في جبل النور بمكة المكرمة، وإذا به نبي، ثم رسالة مقدسة تُفرض حولها أسْوجة وجدر سياسية وعسكرية واقتصادية.

وثيقة مقاطعة في مكة، ثم مواجهات عسكرية في المدينة، لتتمكن هذه الرسالة من تفكيك كل هذه العوائق، وليصبح اسمه اليوم أشبه بالتراتيل الصوفية.

في المؤتمر الآن يجلسون أمامي، أنظر الى محبوب غائب حاضر أحمل اسمه، اسماً ليس ذاتياً، بل يتطلع نحو الآخرين، يحمل شقا من تجربته الوجودية العميقة، ويعرض رسالته في كتبه ومحاضراته.

فمن كان يريد أن يكون محمدا، فليعلم أنه في مغتربه أو في مجتمعه يحمل على عاتقه مهمة أن يكون سفيراً لمعنى المحمدية ببعدها الإنساني والأخلاقي الشامل، لأنه سيقف أمام الدفاع عن هوية كاملة وتصحيح مفاهيم أمة مشوهة، وليس فقط بتمثيل نفسه.

# حقير

**ربما ستعيد هذه الصورة اليك الذاكرة؟**

لما لا تأخذ هذه الصورة وتغرب عن وجهي.. وتبكي عليها طيلة الوقت.. على أي حال.. من أنت؟

**المباحث.. أليس هذا واضحاً؟!**

يزورني الكثير من المحققين في المباحث.. ولست أنا من يقرر أن يزورونـي..

**أيها الحقير.. اغتصبت فتاة بعمر ١٣ وقتلتها؟!**

هذا سبب شهرتي أيها المحقق..

# يوم الأحد

أقدم على لعنة مقصودة ومدروسة، أنهى بها الحد الفاصل لكل الفرضيات الوجودية.

من سمح لهذه الحرية أن تقرر مصير 14 شخصاً في أكبر التحديات مواجهة للمبادئ الأخلاقية والقيمية والجمالية التي تحرم تدمير الذات؟!

دخل الى عمله، توجه الى مكتب مدير العمل، ثم قام بإظهار سلاحه وأطلق النار عليه ليخر ميتاً على الفور.

ثم غادر مكتب المدير، ووقف أمام زملاء عمله جميعاً، وهم يرقبونه بتعجب، فما كان منه سوى أنه فتح النار عليهم جميهاً دون رحمة!

أطلق النار على كل شيء، على زملائه، والجدران، والمكاتب، حتى أنه أطلق النار على سلة النفايات.

ثم بعد وأن قضى على المبنى بأكمله خرج الى الشارع، وراح يطلق النار في كل الاتجاهات.

استمر اطلاقه للنار ما يقارب النصف ساعة حتى حضرت الشرطة، ألقت القبض عليه وزجت به خلف القضبان.

وعندما جاء وقت التحقيق سأله المحقق: لم فعلت ذلك؟

فأجاب: لأنني لا أحب يوم الأحد..

# واجب العزاء لقلبي

أقبل من ذلك الجُحر المتنائي ليواسيني.

وعندما اقترب مني بالكاد كدت أحفظ شكلي أمامه.

الأرض صفراء.

ولقد جاء من تلك الأوكار القابعة تحت جذوع تلك الأشجار ليقدم لي واجب العزاء.

كنت أسئل روحي: بأي ضمير يأتي القاتل ليقدم العزاء لأهل قتيله؟

أليس هذا مشهداً دراميّاً غريباً؟

أليس هذا مأزقاً فلسفيّاً عجيباً؟

كيف يمكن للقاتل أن يقف في وجه من قتله؟

لقد وضع حدا لخلافنا بضربة حاسمة وجهها الى قلبي.

لقد مات قلبي، والعزاء الحقيقي لم يكن لي، بل كان مأتماً لضميرك الذي مات ولن يعود.

# نصف إنسان

في السابع عشر من حزيران.. بعد سبعة أيام صرخ في وجه أبيه:

"متى تنتهي هذه المسرحية".

أجاب الأب: لا يوجد تاريخ محدد في التقويم الزمني يتنبأ متى تضع هذه المسرحية رحالها.

بعيداً عن الأب وابنه..

لك أن تتخيل كيف يعيش نصف إنسان، منطقي جاف، يتحرك بآلية صارمة وثنائية ديكارتية.

لك أن تتخيل كيف ينفصل نصف إنسان عن ذاته، كالاغتراب الماركسي، ويقضي يومه في حركة ميكانيكية.

لك أن تتخيل كيف يصنع نصف إنسان حريته واختياره، وهو يعيش في الحقيقة وهم الوجودية.

حينما يغيب العالم الأعمى، وتتحول الحياة إلى مجموعة من العادات التلقائية، يستفيق، يكدح، وينام، دون أن يُسمح له بسؤال "لماذا؟"، أليس هذا ما سماه كامو بالعبثية؟!

أين هي الإنسانية؟

أين هي الإنسانية عن موت وجودي بطيء، وعن نصف إنسان يُباع ويُشترى في هذه الرواية المسرحية؟!

# تلك المواسم

هل ستظفر بمناسبة أخرى للأوبة مرّة أخرى؟ هل ستمنحني تلك المواسم لمحة أخرى، ابتسامة أخرى.

تلك المواسم لا تجدُ مُسوغات وأعذار تستتر خلفها، فقد كان إتيانها بأغنية عابرة منك.

قد كان حضورها تحت شجرة عارية جلس عطرك تحتها.

تلك المواسم..

كان فيها مقعداً فارغاً، حيرة أديمة، ودعاء لم يُقطف بعد.

وما زلت أنتظر الإجابة.

# ٢١ طعنة

**كيف؟ ولماذا؟**

سأخبرك الآن.. امسك هذه السكين.. هل تشعر بشيء؟

**كلا..**

هل تعلم كيف يكون شعور أحدهم حينما يطعن بهذه السكين؟

**ابعدها عني!!**

لقد طعن زوجته بها ٢١ طعنة أمام العالم وهو يفتح بث مباشر.. أتعلم ما السبب؟

**كلا.. لماذا؟**

لأنها قدّمت له الطعام بارداً..

# سيد الطبيعة

في عالم الإنسان وفي كتابه الوراثي نص مكتوب بلغة مشفرة تتطلب قرونا زمنية من الذكاء البشري والاصطناعي لحلها وفكها.

سيد الطبيعة ظن أنه آلة ميكانيكية يمكن التكهن بها مُطلقاً، بينما هو كون مصغر يحتوي على مجرات مظلمة لم تُستكشف بعد.

ظن أنه قد وصل الى أعماق الوجود، واتضح له بعدها أنه يلعب فقط على شاطئه.

وكلما أرد العلم أن يقيد الكون بـمعادلة، أو أن يختزل الوجود في نظرية، أتته من السماء صفعة كبرياء معرفية، زلزلت أركان يقينه الهش.

حتى المربع السقراطي لم يكن فيه الإنسان يفهم من الوجود سوى قشرة السطح.

علينا أن نعترف أننا في حالة توصيف الأشياء، لكن ليس في حالة فهم كيف تشتغل هذه الأشياء، فكيف تحولت العتمة في صندوق أسود الى ضياء نرى به الأشياء؟

ماذا حدث داخل هذا الصندوق الأسود؟!

علينا الاعتراف بالجهل لأنه أول عتبات الحكمة، وأن تميزنا كبشر لا يكمن في نورنا، بل في عتمتنا.

فهذا الغموض في عتمتنا يضفي نوعاً من الرومانسية العلمية والمهابة الفلسفية على أجسادنا.

ولطالما أرسل المولى سبحانه آية من آياته كصفعة كبرياء معرفية لنا، ليخبرنا أن الإنسان مهما بلغ فإنه سيقف مذهولًا أمام عمق عتمته واتساع الكون من حوله وضيق إدراكه.

تلك الصفعة الربانية ما هي إلا دعوة متجددة للتواضع المعرفي؛ لنعلم أن فوق كل ذي علم عليم.

وأننا نقف فقط أمام حالة تأمل ووصف لعظمة هذه اللوحة الكونية.

# لعله يراني

أؤخر الزمن بكفي.. أنكس الأرض.. لعله يراني.. لعله يجعلني أراه..

أيها الكائن العظيم..

افتح لي ثقبا دوديّاً في السماء يربطنا.. أسافر فيه عبر الزمن.. لعله يراني.. لعله يجعلني أراه..

حلق بي نحو سداسية زايفرت.. إسبح بي نحو العذراء.. لعله يراني.. لعله يجعلني أراه..

اعبث بسهيل.. اقلب العيوق.. امسح الدبران من أمامي.. لعله يراني.. لعله يجعلني أراه..

غير المواقع.. جهّز المواضع.. أعد ترتيب الكون في كوني.. لعله يراني.. لعله يراني..

# لحظة مُلتفة

ممر تمسمرت تحته أيامي..

لحظة مُلتفة بمِطرف يخلغ عنك الصفات ويمحي الأسامي..

وزمن يوليك قفاهُ بعد أن يقتل كل الأحلام والأماني..

كالصخرة الثقيلة تشقها الحياة بومضة، وتختفي داخل العجوز ببرهة، وتمزق بين أزقتها المتشعبة كياني..

رحت أركل الريح لتنادي ذاكرتي، وأبعث خلف المطر المنهمر في شوارع نيقوسيا أن يعيد لي هُنَيْهَة من أيامي..

ولكن البوق نفخ.. وغادرتي الحقيقة.. وأغرقتني الأربعون في بحر أوهامي..

في مديدة وكأنها لا تنتهي.. وقصيرة وكأنها حلم لليلتين، تبخرت فيها كل أحلامي..

يا رب رُدني إلي.. ودس في جسدي المفتاح.. وأعد لي كل أقلامي..

لعلني أطير داخل حمامة.. وأضع قبلتي على كل مسكين ويتيم، وأنشر في المجرة سلامي..

# كلمات ليست كلمات

مغامرة أسوقها إليكم، كلماتي أضعها بين أيديكم، كلمات ليس كالكلمات يا ماجدة، كلمات ليست كالكلمات يا نزار "رحمك الله".

لكن اسمح لي يا نزار أن أعبث بها، أن أمنحها مشروعا قوميّاً، تتمخر فيه بلادي عزيزة .. لكي تصبح ليست كالكلمات.

فيسمعني حين يقاتلني .. كلمات ليست كالكلمات

يقتلني تحت ركام .. يفتتني في احدى الغيمات

والرصاص الأزرق في صدري .. يهطل زخات زخات

يرفعني معه وينقلني .. لفجر آت في الشرفات

وأنا كالصخرة في فمه .. كجيش عنيد ترسه النسمات

يمنحني ألماً، يعطيني وجعاً .. يمسحني من كل الساحات

يُعلمني أنني حتفه .. ورقم ضائع في بحر الآهات

وأني مصنوع من فولاذ .. وأني أشبه في تركيبي الآلات

يرسل دبابة تراقصني .. وطائرة تقصفني من كل الجهات

بقذائف تقلب تاريخي .. لكنها تضويني أملا في العتمات

يهدمني بيتاً من أمل .. يكسرني عزاً بمختلف الأدوات

فترسلني الريح الى ربي .. مجداً يتلألأ في كل الآيات

# إنكاره مستحيل

أن تبحث عن مفقود، ويكون نفيك إليه صحيح، وأن وجوده عبث، وأن المعتقد به وهم صريح، تلك تجربة عدمية ستقذفك كقربان لذلك اليوم كالذبيح.

هل فحصت وجهه في كل الكون؟ هل فحصت الوجود أصلا لتختبره فيه؟

هل بحثت في السماء وما فيها، والأرض وما فيها، وفي الزمان والمكان، وفي الشيء، وفي كل شيء، كي تنفيه؟!

لذلك إنكاره مستحيل، وإلحادك به تمثيل.

# بين سبع مجالات

بين سبع مجالات، ليس الجميع في ذات المجال من الوعي، وأعتقد أن الغالبية لم تتخطى المجال الأول حتى في هذا الزمن التنميطي وعصر القطيع.

يأكلون، يشربون، يعملون، يتغوطون براحة داخل نسق مُمنهج يصدقون فيه كل ما يُقال، وفيما يُبث في عقولهم دون سؤال، أو شك فيما يُقال.

عقلية الغالبية في خضم هذه الروتينية تشبه ما يُعرف بأثير العربة، لا يشعرون إطلاقاً بأن هناك خطأ ما، والفرد فيه يُسلم عقله للجمهرة، وللأخبار وللتكرار، ولكل كذبة ولارتفاع الأسعار.

لا يشك في الطعام، أو السياسة، أو الحكاية، او العلوم، أو الأغاني، أو حتى في ذهابه الى الحمام.

لعبة ضمن ألاعيبهم، وآلة ميكانيكية في نظامهم تصوغ له مفهوم الصواب والخطأ كوظيفة تكرارية هو ضحيتها في نهاية المآل.

لا يتحدث مع نفسه، ولا يسأل عن داخله المبرمج الذي صنعه الاخرون له، ولا يتحكم في طاقته التي تهزها ذبذبات المحيط، ومؤمن بأن الخارج سينقذه، والحقيقة أن داخله يتواجد الربان، وهو من يقود السفينة.

# سري للغاية

يعود الصياد الى شط الفلسفة الهيجلية، ليفشي سره إلى براغماتي عاري يمنطق الصفقات الكلية، ولا تتعلق مسألة الصياد بعبودية بيولوجية أو قسرية، بل بتبعية بنيوية.

يقف بطابور سياسي طويل ليرمي سِنّارته، ويعود بسلام أو تصفية لإحدى القضايا المركزية، وكلما كانت القضية كبيرة أو وطنية، كلما أضحى مفعولاً به بالمعاهدات الدولية، حتى تصدر القرارات المائية أن الصياد هو الضحية.

# ثلاجة الحليب

في الزمن الحديث لا شيء يُترك للمصادفة، وكل شيء نتاج تخطيط سلوكي دقيقة، فيجب أن تعبر المسافة الطويلة والممرات الضيقة كي تصل الى ثلاجة الألبان والحليب القابعة أقصى مؤخرة الماركت أو السوق.

ويجب أن يكون التصميم الخارجي للمولات والمراكز والمجمعات التجارية أقرع دون شبابيك أو نوافذ.

في المقابل، تفرض المقاهي تشغيل الموسيقى البطيئة والهادئة لأطول قدر ممكن، بينما تلتزم مطاعم الوجبات السريعة بتشغيل الموسيقة العالية والصاخبة والسريعة.

كل هذا التنظيم اللوجستي والاستراتيجي مُتعمد لتحويلك الى مستهلك، وايقاف إحساسك بالوقت، لإعادة توجيه انتباهك في رحلة استكشافية قسرية يتعرض فيها وعيك لقصف بصري منظم.

فلتعلم يا عزيز، أن المسافة من مدخل المول الى باب ثلاجة الحليب هو فضاء مصمم لاصطياد عقلك.

# ما يكفي من الجنون لتهديد العبقرية

يعتقدون أنها مجرد كتلة صخرية، لكنها في الحقيقة موصل كهربائي عملاق، بل انها تبث ترددات موجية معينة عبرها، ولقد اكتشف العبقري أنها ليست صخرة صامتة تدور في الفراغ، بل قلب نابض بالطاقة.

بين القشرة الأرضية والغلاف الأيوني، كانت فكرته تتنقل في الهواء لتنير أفقر عابر سبيل في هذا الوجود مجاناً.

لكن المجانين هدموا المشروع ونسفوا البرج، لتبقى الحاجة في جيب المجانين وعبر بوابات جباية الملوك.

كان يطمح أن يجعل الهواء جسراً للضوء، لكنهم قتلوا فكرته، ومات بعدها وحيداً في غرفته، وبقيت الأرض تختزن أسراره بصمت في فتات عالم حقير يضج بما يكفي من الجنون لتهديد العبقرية.

# نفايات تطورية صامتة

من نحن؟ وكيف نتشكل؟

لأمداء بعيدة اعتقدت الرؤية المادية والميكانيكية أن المجين هو سِفر التكوين المكتوب به الإنسان، وأن نسخ المُخطط فيما يُنتجه هذا المجين هو القيمة البيولوجية لنا.

لكن جاء المظلم منه ليزلزل هذه الرؤية الآلية، ويفتح باباً ميتافيزيقيّاً جديداً يعيد صياغة المفاهيم الوجودية.

فما كان يُسمى "خُردة" لم يكن سوى ارتداد علمي لنزعة فلسفية مادية إيجازيه ترى أن ما لا يُنتج وظيفياً، لا قيمة له، وأنه نفايات تطورية صامتة.

لكن الصمت لا يعني العدم، أو أن يكون بالضرورة اختفاء، فقد يكون شبكة تحكّم هائلة وميستيكية تدير جوقة الحياة برمتها.

الأشياء التي اعتقدنا أنها بلا هدف أو معنى، تبيّن أنها المايسترو الخفي الذي يمنح الموسيقى عمقها ومعناها، وهذا ما يُخبرنا به الجينوم المظلم اليوم من مفارقة وجودية عميقة.

إن كل شيء هو خطة، وله سبب وغائية، فلقد حاك الله سبحانه الإنسان في عتمة خفية لا ترى بالعين المجردة. ونحن لسنا مجرد صدفة عبثية، بل نحن الحوار الأزلي الذي لم ولن يموت.

# العوالم الغامضة

ثمة شاغل في داخلي يسعى ليزيل ما تستره العوالم خلف أقنعتها السوكوبوسية، تبدوا هذه العوالم كبرنامج حكائي يميل الى اجتنابي أثناء الإفتتاح.

توظف شرائح سرية من السينيزم الذي يستند الى العلامة، الهوية، والذرائعية الجنسية.

عادة ما يكون العنوان بوابة للمحتوى، والذي يبدو لي من الآن أنه ضبابي مُبهم وبدون ألوان.

هذه العوالم ليست جليظة أو واضحة، وتتطلب راوياً هرمنيوطيقيّاً يزيل عنها مدايات قذارتها القَرْنِيطية.

لكني لن أَصْفَحُ الصفحة، بل سأحنو نحو عزلة جائحة، تموت فيه العوالم الغامضة، وأتجاوز فيها صمت هذه المجرة الحاضرة.

# الفلترة لدماغ مرن

للحصول على دماغ غير متعفن:

اقتل "لماذا".

بسط "ماذا".

عظم "كيف".

# لقد تأخرت

وصلت متأخراً..

**أعلم أني وصلت متأخراً**

انظر إلى وجه ساعتك الحديدة، عندما تُأكل دقائق الآخرين بلامبالاتك، فإنك لا تتأخر عن موعد فحسب، بل تعدم جزءً من حياتهم..

**خفف من غلوائك الربانية**

تركتني أنتظرك طويلاً، ولست أداة مركونة على رصيف مبرراتك، أو كرسّي مهجور في مقهى أحلامك..

**من جحيم المأزق الوجودي خرجت إليك؟ ودفعتُ عشر أجرتي اليومية لأجد وسيلة تقذفني إليك!**

العهد هو العهد..

**لقد كنتُ أسيراً لمئات الأجساد والآلات التي تحترق في مكانها، فكيف تحاكم أسيراً مُكبلاً يقبع خلف قضبان الشارع؟**

مهما كان لقد تأخرت.. والانتظار المهين!

**في عالمنا المكسور هذا، أحياناً يتأخر الإنسان عن أحدهم لأن العالم سرق منه كل ما لديه في طريقه لمن تركه وغادر.**

# هل سنلتقي غداً

عاهديني أنك لي.. عاهديني أن أقضي ولو أسبوعاً واحداً فيكي، في مدرج حجري في حي المصرارة، أو عند عتبة قديمة خلف باب العامود، في عمارة عتيقة في حي الشيخ جراح، أو فوق شجرة عالية في جبل الزيتون.

ما أجمل أن ألتقي بموسيقى عالقة بين السماء والأرض، أن أسكن آذان ينتشر في وجه التاريخ طولا وعرض.

يا قدسي.. صنعتُ للقائنا طقوساً، لكنك لم تأت؟!

لماذا تأخرت يا قدسي؟ هل غيرت موقفك من الخروج معي في موعد؟ لأنك أكبر مني عمراً، أم لأنك تمقتين اللقاءات الجماعية؟ هل لأني عربي، أم لأنك تكرهين الرومنسية؟

كم وددت أن نجتمع معاً، أن نتناول كعكك معاً، نرتبك معاً، نبتسم معاً، نصمت معاً، أن نعود للبيت بيتك معاً.

تأخرت كثيراً.. وها أنا أحمل حقائب الحب وخرائط أزقتك، أغادر مقعدك الفلكي العصي على النسيان.

حتى هذه اللحظة..

ذهب نصف عمري في انتظار ميعادٍ مع كبريائك لم يكتبه القدر أن نجتمع معاً، ولا أعلم هل سنلتقي غداً..

# ساعي بريد ميّت

هل القصيدة تعرف صانعها؟ أم أنها أمضت ليلها تقطع حبل السُرّة الفكري لتنكره؟

يا قصيدة آبت من المنفى، جابت المدينة وعرفت من ألقاها ومن غناها، أهكذا تمضين بصمت آخر أمام دماء من كنت تتغذين على نبضه وسهده؟

تمشين في الشوارع والمنازل والأسواق والأحياء والمقاهي بكبرياء، تعيدين تشكيل الحكاية، وتلعبين في مصير الناس وتكتبين النهاية.

تحولين المدن الى مقابر، والحقيقة الى خيال، والخنزير الى فراشة تطير كالحلم الرقيق فوق تلك التلال.

يامن كنت النطفة المشوشة الأخيرة في عجز البيت المُباع، لماذا أضحيت ملكاً للمشاع؟

تتنكرين لصانعك، وتنزعين قناعه لترتدي ألف قناع وقناع، وما المؤلف في عينيك سوى ساعي بريد ميّت!

# الحقيقة المستورة

تصبح كالعنكبوت تنسج بيتها الهندسي لتأويل ما يعجز الإنسان عن تأويله، لكن النهاية تُظهر الحقيقة المستورة للأسطورة؛ فما كان بيتها سوى أوهن البيوت.

في ليلة زفافها تمنح زوجها موتا بدافع الغريزة البيولوجية، وتفترسه جنسياً.

تفكك الروابط الداخلية، ويتحول بيتها الى ساحة نزاع يأكل الأبناء فيه بعضهم بعضاً في صراع البقاء.

وهكذا معظم البشر داخل قلاعهم، تفترسه زوجته ماديّاً، ثم تخلعه من حياتها.

تتفكك العائلة والأسرة، ويتحول البيت الى ساحة حرب ينقلب فيه الأبناء إلى "عناكب صغيرة" يتناحرون ويأكل بعضهم بعضاً فوق حطام الميراث.

# لا تخسر الشغف

القصة موجعة هنا، تبدو مُجاوِرَة للأساطير اليونانية، يؤمن بها الأغلبية، رغم افتقارهم لوجود أهم محور فيها، ألا وهو "الشغف".

لماذا انسحبت الصداقات من المناسبات الاجتماعية، وتحولت الى لقاءات عابرة لتمرير الوقت؟

لماذا أصبح الخروج إلى المنتزه عبارة عن حركات ميكانيكية فقط؟

لماذا يتحول الفن من أداة لتوليد المعنى إلى مجرد مهارة تقنية لإنتاج أعمال مكررة (كليشيهات) لا روح فيها؟

لماذا فقدت الأماكن سحرها، وتحولت الهوايات التي كانت تنقذنا يوماً إلى عبء إضافي يتطلب طاقة لا نملكها؟

لماذا أصبحت العين تعاني من "الأنيميا الثقافية" ولم تعد ترى الجمال؟

لماذا نخسر المباراة؟ لماذا نفقد المحبوبة؟

لأننا خسرنا الشغف..

خسارة "الشغف" هو إعلان عن خسارة كل شيء؟

# تلك المدينة

في تلك المدينة قهرٌ لا تصفه حروف شكسبير في أدبه، ولا المتنبي في قصائده، ولا تشيخوف في قصصه، ولا تولستوي في رواياته، ولا غوستاف في سيمفونياته، ولا دافينشي في رسوماته.

في تلك المدينة يموت الطفل لأنه طفل، وأحياناً بلا سبب.

في تلك المدينة ينهار الأب أمام مصحف لم يكتمل، سجادة صلاة فارغة، ومائدة إفطار باردة.

في تلك المدينة تنفجر الأم وتتمزق أنسجتها لخلل في الجاذبية.

في تلك المدينة فقدت الأشياء وظيفتها الأساسية.

في تلك المدينة جسد مُقطع، جسر معاق، وتفاصيل هامشية.

في تلك المدينة ليس هناك ربيع، ولا أعوام.

في تلك المدينة مازال الانفجار العظيم يتكرر، ويُعيد تشكيل الموت في كل نقطة.

في تلك المدينة قصص تختصر اللحظة، تنقلك الى كوكب خارجي، لحضور جنازة في سديم من الغبار الرمادي.

في تلك المدينة مجرة منسية من الصبر والألم، تسبح في كون بارد نحو نيزك ومخلوق فضائي.

في تلك المدينة مازالت المدينة ممسكة بقلم التلوين، ترسم حيفا وعكا ونابلس والقدس، وتُلوّن جنين.

في تلك المدينة ساعة سرمدية من غبار، ورائد فضاء يسكن كوكب مهجور، وسماء لا تعرف الحصار.

# تحت سماء السين

كامتصاص المسافة الضوئية، كان الموت يتلاشى بيني وبينها.

عندما وصلت، حدث انهياراً سيكولوجياً لي، وكأنني تلقيت صفعة مميتة قادتني على الفور إلى الجنون والموت مرة أخرى.

لا أعلم كيف أمطرت الغيوم شوقاً؟ لا أعلم كيف سقطت الابتسامة مني؟ لا أعلم كيف أصبحت أحب المانجا؟!

كانت عينيها أجمل لوحة أرضية، تنقلت فيها بين المدن، روما، باريس، ووصلت الى أقصى المجرات الفلكية.

أتعبتني.. أمرضتني.. أشعرتني بالقلق حيال تعصبنا لأفكارنا النمطية، وكأي فضول رقيق رحت أطرح بدوري أسئلة فلسفية؟

عزف المايسترو مقطوعته، في امتحان أمام كمنجته العبقرية، فانفلتت القصيدة مني، وتجاوزت اللغة جاذبيتها اللغوية.

وعلى عجلة نطقت باسمها "دنيا"..

تحت سماء السين الرومنسية، دعينا نمارس أسمى طقوس التانترا والبوذية.

# زلزال بوليتيكي

بلغ القمة بسرعة استثنائية، مع أن العمارة تُبنى طوبة فوق طوبة، وأحياناً تُشيّد عبر دهاليز من المداهنات، والتنازلات، والعلاقات، وغالباً بالتراشقات، إلا أنه كسر الناموس الكوني، وقفز الى سدّة البناية بسرعة تساوي سرعة الضوء!

إن هذا الصعود الخاطف لا يُجسد مُجرد واقعة عابرة، بل زلزال بوليتيكي، يعيد تعيين آصرة الإنسان بالشرعية والمشروعية.

إن هذا الحدث الفجائي أشبه بالانفجار العظيم (Big Bang)، وحتى هذا الانفجار يخضع لحسابات رياضية ونماذج فيزيائية دقيقة للغاية، كمعادلات فريدمان(Friedman Equations) وإشعاع الخلفية الكونية الميكروي (CMB) وتخليق العناصر الخفيفة (Big Bang Nucleosynthesis) ورغم هذه الدقة العالية، إلا أن الرياضيات المعاصرة تقف عاجزة عند لحظة الصفر تماماً في هذه النظرية.

لكن ما حدث مع هذا الإنسان يفوق الخيال، فقد تفوق على الرياضيات، وقفز من الدرجات الأولى في المبنى للوصول إلى السدة مباشرة؟! تماما كعفريت سليمان.

هذا المارد الذي قال لنبينا سليمان عليه السلام، أنه أقدر على إحضار عرش بلقيس من بلدها قبل أن ينتهي نبينا سليمان من مجلسه الذي يقضي فيه بين الناس، أو يأكل فيه.

والمعروف أن نبينا سليمان كان يقيم في أرض الشام، وكان عرش بلقيس في اليمن، وكانت المسافة بينهما مسيرة أشهر ذهاباً وإيَاباً، إلا أن العفريت طلب إحضاره في أقل من يوم.

ولقد فعل عفريت الإنس هذا ما قد كاد يفعله عفرين الجن، ففرض مشروعية اللحظة، وتمكن من بلوغ رأس البناية في لحظة، إلا أن الفارق بينهما هو:

أن عفريت الإنس لم يكن بجانبه لبلوغ رأس البناية سوى ظهير دولي.

# قذائف راديكالية

في وعاء التصنيف الضيق أُصدر الحكم في انتمائه سلفاً، فلماذا يستدعونه للمساءلة إذن؟

عندما وصل.. كان هناك ثلاثة بانتظاره، الأول يمسك قلماً، والثاني ينظره من خلف نظارته، والثالث يجلس خلف المكتب.

في محاولة لتفكيك المركب، أطلق الثالث قذائف راديكالية في وجهه لرغبة خفية منه لاغتيال خصوصيته الفردية، وأخذ الأول بتدوين الشظايا المنتشرة على مفكرته البيضاء، وأخذ الثاني من خلف زجاجه الداكن يتأمله ويراقب ماهية وجوده.

بمحاولات بائسة يدفعه الثالث الى الموت عبر قذائفه، فمرة يطل عليه بوجه فوكو ويختبره سياسياً، وتارة يُطل عليه بوجه سميث ويختبره اقتصاديّاً، وأخرى يُطل عليه بوجه ميكافيلي ليختبره وطنياً.

ينتظر إجابة جاهزة في قوالب الأيديولوجيات الجامدة، وأثناء ما كانت تداعب الأفكار خصلات شعره كان يتساءل: "لماذا لم يُطل علي المحقق بوجه سقراط ليختبرني أخلاقياً؟ أم أن ذلك لعلة أن الواجب الأخلاقي ينبع من الإرادة الخيرة الذاتية للإنسان كما قال كانط؟".

بين تحريك كف، نظرة شك، قلم مسرع، كان يقول في نفسه: "كيف لمحقق جاهم يعيش وسط ملفات جافة أن يفهم فلسفة كانط، فضلا على أن يدرك أن كانط نفسه كان يقود أكبر عملية تحقيق في تاريخ الفكر البشري؟!".

كالفيلسوف الصامت الذي يدون لحظة الحسم وينتظر برهان نظريته، قالت له روحه: "عندما تُبخس قيمة المتكلم كعارف، أو كصاحب حق في رواية حقيقته، يصبح الصمت أحياناً موقفاً فلسفياً احتجاجياً، لأن الكلام يمنح شرعية وهمية لعملية تحقيق حُسمت نتيجتها سلفاً".

أثناء هذه المحادثة الخيالية مع روحه تجلى له نور ماهية ذلك الوجه في فضاء رحبًا خارج خنادقهم الضيقة التي تحاول تفكيك مسلماته، والتي حررته من كل مسالك هذه التعصبات الضيقة (الشوفينية)؛ أخبره النور ان هذه الجلسة ستكون منعطفاً للذاكرة.

كان يشعر برغبة مُلحة في الخروج، بعدم التحدث والاستماع، وفي برهة يعرفون فيها القليل والكثير عنه قالوا له كالغرباء:

"كبرت في غفلة منا، واليوم تجلس أمامنا كسقراط الذي كان يرفض الانصياع للآراء السائدة في أثينا، وبيكون الذي كان يرى أن الاستقلال هو التحرر من أوهام هذا المسرح".

بعد دقائق..

أغلق الأول دفتر ملاحظاته ببطء، وأطفأ الثاني نظراته، وهمس الثالث بنبر هادئة: "أعلم أنك على حق، لكن نحن مجرد أرقام في آلة ديناميكية لا ترحم".

# لماذا يموت رجالنا مبكراً

**هل يموت رجالنا؟**

نعم..

**سمعت انهم لا يصلون للعمر الثامن عشر يا جدي؟**

أجل..

**يموتون عادة في الرابع عشر من العمر؟**

نعم.. لقد أخذ القدر والدك في سن الثامن عشر؟!

**لماذا يأخذ القدر أعمارنا مبكراً دون رحمة؟ ما الذي يريده القدر منا يا جدي؟**

هل قابلت الهمجي؟

**لا!**

رجالنا يموتون مبكرا بسبب هذا الهمجي..

**من هو هذا الهمجي يا جدي؟**

دائما ما كان خوفي هو أن أختار.. ولكن مع الهمجي فإن الخيار لم يكن ملكنا من الأساس يا حفيدي!

**هل قتل الهمجي أبي يا جدي؟**

لقد كان جدك صيحة فوق المألوف.. مغيثاً للملهوف.. لم يكن عاديّاً.. بل زعيماً منقطع النظير.. لقد كانت حياته استثنائية.. وكانت مسيرته ملحمية.. وهب حياته للقضية العالمية والكونية.. فكان موته استثنائياً وولادته الحقيقية..

**سأقتل الهمجي وآخذ بثأر أبي يا جدي!!**

ألم تسأل نفسك.. لماذا لم يتطوع أحد لمواجهة الهمجي بعد كل هذه الأعوام سواك؟

**لا..**

لماذا لا يوجد من يقود هذه الحملة الفقيرة سواك يا حفيدي؟!

**لا أعلم..**

لقد كان والدك والسابقون يهرولون نحو الموت ولا يتحينون مجيئه..
واليوم يهرول الناس خلف لقمة العيش ويركضون خلف حلقة مفرغة لسد القروض والديون.

**إذن.. سأقود المسيرة أنا، وسأخبر كل الجهات بذلك؟**

لا تفعل..

**لماذا؟**

سيستغلونك كشيء وأداة لتحرير الأرض منه..

**وليكن.. المهم أن أخرج الوطن من لعنته..**

يا حفيدي.. إن نجحت في تحريرها سيسلبونك مجدك.. وان فشلت فسيلقون عليك باللوم والفشل والخروج عن الصف، وسيجدون بديلا أحمق غيرك..

**إذن.. لن أفشل.. وسأحررها وأنال احترام الجميع.. أليس هذا ما علمنا اياه والدي والسابقين؟!**

سيعلقون الأوسمة على صدرك، ثم ينفونك إلى أحد الأرياف البعيدة لتموت وحيداً، وستمحى من الكتب والذاكرة، وسينسبون النجاح لأنفسهم الطماعة والأنانية، ولكراسيهم المتسخة!

لقد منح والدك كل عمره لفلسطين.. وفي المقابل لم يمنحه القدر فرصة أن يحتضنك حتى يا حفيدي!!

**وهل سأعيش بين الطعام والحمام؟! هل سأقضي عمري حراثاً لهم وكلباً لأوامرهم؟! متى سأصنع تاريخي؟ متى سأصنع مصيري؟**

أن تكون كلبا حياً، أفضل من أن تكون بطلا منسياً..

**أفضل الموت على أن أعيش في عيون عالم بشري ثابت لا يتغير.. إذا كانت الأرض تحركت، متى سنتحرك نحن؟!**

أخبرك بالحقيقة.. هذا كبر وعناد!!

**بل هذا ايماني أنني يمكن ان أحدث تغيير..**

لا يمكنك احداث التغيير؟!

**لماذا لا يمكنني؟**

لان هذا العالم ثابت.. ويسير منذ الالف السنين بهذه الطريقة!

**إذن.. لابد من أن يفكك أحدهم المسلمات ويكسر الفخ الأيديولوجي، لابد أن يتغير هذا العالم ويتحرك.. وأنا من سيحاول هذه المرة..**

قد تموت وأنت تحاول!!

**ليتك كنت تؤمن بقدرتي على التغيير بدلا من اقناعي عن العدول عنه يا جدي؟!**

سيرسلك الرب لتفشل؟

**ان الفشل معلم يسوقه الرب لعباده.. والسؤال الحقيقي والآن هو: "ماذا تعلمنا من هذا الفشل يا جدي".**

**لقد علمت الآن لماذا يموت رجالنا مبكراً..**

# عندما تتحول النملة إلى فيل

إكتئابي له أصوات عديدة، وله صور كثيرة، فأحياناً أراه صغيراً كنملة تسير على ظهر فيل، وفي اليوم التالي يصبح كالفيل!

في اليوم الذي يكون فيه صغيراً كالنملة، فإنني أتماشا مع سيرورته وأتعايش مع تفتته الصامت بداخلي، فأنهض من سريري وهذه النملة نائمة إلى جانبي، وأتناول طعامي على المائدة إلى جانبها، ثم أخرج من بيتي برفقة هذه النملة متجها نحو عملي.

أثناء مرافقتي لها نتبادل أطراف الحوار، فتارة نضحك وأخرى نبكي، وتارة نتدحرج وأخرى يضربنا الجنون، نفعل كل شيء معاً، حتى أعود منهكاً إلى سريري لأرقد فوق مواجهة وجودية صامتة مع كائن متناهي الصغر ولدغته الوضعية المنطقية، ووخزاته المتراكمة والأشد ثقلا من صخرة سيزيف.

في صباح اليوم التالي أجد النملة قد تبخرت، وحل مكانها فيل عملاق يجثم فوق صدري!

أثناء هذا التحول الأفلاطوني الذي دُمرت فيه هوية النملة الأولى، وخُلقت فيه هوية الفيل الثانية، فإنني لا أستطيع النهوض من على سريري! يدي التي سحقتها النملة لا تقوى على دفع هذا الفيل الكبير المتربع فوق جثتي، وقدماي أشبه بمواجهة عنيفة أمام جبل إفرست، فأتظاهر بالموت في هذا اليوم، واستسلم للسرير لعلّ هذا الفيل يرأف بحالي ويتضاءل مجدداً ليعود بحجم النملة.

لا أخفيكم أن هذا الفيل اللعين ليس كأي فيل عرفتموه أو رأيتموه، لأنه ليس له شكل ولا ماهيّة، ليس له أذن ليسمعني، أو قلب ليشعر بي.

إن العيش مع فيل عملاق لا يرحم يستحيل تجاوزه، لأنه يعمل على انكماش ذاتك الفيزيائية وتراجعها لتصبح نقطة صغيرة متجمدة فوق السرير.

لقد بدّل هذا الفيل الكبير علاقتي بالزمان والمكان والذات، فأصبح وجودي في ارتطام مستمر بجدار من اللحم الرمادي الكثيف، وأمام ثقل اللحظة وعبثية الألم واللامبالاة القاسية لكائن لا يعبأ بي، كنت أبحث عن مساحة صغيرة لأتنفس، أتنقل بين أقدامه الهائلة في أقصى صورها لأبقى على قيد الحياة.

في اليوم الذي يتقلص فيه هذا الفيل ليعود كالنملة، فإنني أشعر بثقل الشهقة، لكنني أستطيع أن آخذ الشهقة، أشعر بثقل الخطوة، لكن يمكنني أن أذهب للعمل.

إن العيش مع اكتئاب يتأرجح ما بين النملة والفيل أمر مرعب، لأنني سأمكث في تقلب دائم وسؤال عاجل: "متى ستأتي النملة ولا يأتي الفيل؟".

عندما جاء دور فيلسوفتي الصغيرة انحنيت نحوها، وبدافع من فضول إنساني أثقلته الأسئلة، سألتها في سري: "هل أنا السبب في اكتئابي؟ أم أنت هي السبب؟".

يا نملتي.. اكتئابي جعل الأيام البيضاء سوداء في عيني، فأنا أشاهد العالم عبر نافذة زجاجية قذرة وعريضة، وأرى الناس من خلالها كما وكأنني أشاهد فيلماً سينمائيّاً أحيك ضبطه بإحكام، الصوت يأخذ وقتا عندما أسمعه، والصورة تأخذ عمراً عندما أراهاً، وعندما أراها أسأل نفسي: "هل أنا السبب في اكتئابي؟ أم أن الناس هم السبب؟".

يا نملتي.. اكتئابي جعل المسجد في عيني قبراً مخيفاً، وجعل الجنة في عيني ناراً تحرق رغيفاً، وعندما تبخر الرغيف سألت نفسي: "هل أنا السبب في اكتئابي؟ أم أن المشايخ هم السبب؟".

اكتئابي جعلني أفتش عمن كانوا يدّعون أنهم أصدقائي وأقربائي وأصحابي وأحبابي، من أعطوني يدا تُسبح، وبالأخرى خنجراً ليذبح، وعندما ذبحوا فؤادي سألت نفسي: "هل أنا السبب في اكتئابي؟ أم أن أصحابي وأحبابي هم السبب؟".

اكتئابي أرغمني أن أغادر عملي الذي أحببت، بسبب الذين أكلوا الكراسي وبلعوها، الذين هدموا المهنيّة وحرقوها، وعندما أصبحت رماداً سألت نفسي: "هل أنا السبب في اكتئابي؟ أم أن أرباب العمل هم السبب؟"

يا فيلسوفتي الصغيرة.. هل أنا السبب في اكتئابي؟ أم أن العالم هو السبب؟ وقبل أن يختم جسدي رحلته بين الصخور، هل ستكون خطوتك الصغيرة هي حتفي؟

لم تتوقف النملة لتجيبنا، استمرت في السير الى الأمام غير آبهةٍ بأسئلتي الميتافيزيقية.

أكملت أحدثها أن سارتر كان يرى أن السبب في الاكتئاب هو أنا، بينما روسو وماركس كانا يعتقدان أن المجتمع هو السبب، المجتمع الذي لم يكن سوى عبارة عن ماكينة ضخمة لإنتاج الشر، لكني كنت عالقا في مواجهة جدلية هذا الناموس الكوني بين سيزيفية النملة، وفيل كبير لا يرحم: "هل اكتئابي هو نتاج خطأ في تكويني، أم أن المجتمع هو من كان سببا في نقل المعركة من ردهاته الى أضعف قصبة في هذه الطبيعة؟".

تركتني النملة وحيدًا كمريض نفسي يعاني حالة من الأنيدونيا، ويخوض أعمق معاركه الفلسفية ضد العدم كبندول يتأرجح بينها وبين الفيل.

فجأة، تمسمرت في مكانها، ثم التفت نحوي بكامل ضآلتها الفيزيائية، خُيل لي في لحظة التجلي السريالية تلك أن النملة وكأنها قالت لي:

"نحن لسنا مرضى نفسيين.. نحن ضحايا لمرضى نفسيين".

# لماذا جنين.. لأنها جنين

اليوم أُخبر الناس عنك.. وأحكي لهم قصة حبي لمدينة ليست مجرد أرصفة وحجارة وشوارع، بل خراب جميل بالمعنى النيتشوي للكلمة.

لماذا حبك هو الخراب الجميل؟ لأن حبك يتطلب جسارة شديدة لتجلي القطيعة الابستمولوجية لفكرة هرتزل الإنعزالية نحو كيان عارٍ مسجون في تاريخ مزيف ومبني على صفحات من خرافة.

ولماذا هو خرابي؟ لأنك مدينة المفارقة، ومن تتنفس الخطر في كل أوقاتها، فمازلت الخراب لمتيم يبتسم بين بين حطام روحه، مدركاً أن الهلاك في حب جنين هو أسمى أشكال الخلود.

قد يظن العابرون على كلماتي أنني أكتب عن جنين لأنني من جنين وولدت في أزقتها، لكنني أكتب عن جنين ليس لأنني من جنين، بل لأن جنين مني..

لأنها ثورة على المفهوم الاعتيادي لجغرافيتها قلت أنها مني.. فهي ليست مجرد مكان يقبع تحت حدود سياسية وخطوط اصطناعية، بل فكرة كونية وانسحاق عظيم يخرج من حيز العائق الأنطولوجي ويسكن في الوعي الفلسطيني.

عندما أسير في شارع واحد في جنين، فإنني أعبر الوطن كله من مُستهله إلى مُنتهاهُ.

جنين.. التي تحضر فيها مدن فلسطين، وتتنفس فيها أرواح الثائرين، أرى فيها زاوية من القادرية، وعتبة تُشبه باب النبي داوود، وجبهة من جبل النار، وحجارة من كنيسة المسيح.. يفوح من شذا بياراتها طيف يافا ونسيم حيفا، وحكايات جدي سليمان ورائحة جدتي رسمية.

مساحة صغيرة.. لكنها طقس عبور ميتافيزيقي تذوب فيه الذات، وتتجلى فيها وجه الأرض المقدسة، يتجاوز فيها الفدائي الحسابات البراغماتية، ويبقى عدوها عاجزا ومأزوماً أمام هندسة إرادتها وعقدة استعصاءها، لأنها ثنائية الموت والحياة معا.

عندما أقول أنك مني.. لأن جيناتي تحمل طينة أرضك، وطينة أرضك لا تموت، بل تسكن في وجه الكون، وتسبح روحها في نسيجه.

عندما قلت أنك مني.. لأنك خبر عاجل على صفحة هذا العالم، بل لأنك أهم خبر فيه، فقد كنت ومازلت حكاية تتقاطع فيها سيزموغرافية خرابنا البديع..

لقد تحدث الفيلسوف جاك ديريدا عن "المستحيل"، وأنت هي المستحيل.. جنين هي المستحيل..

لهذا أعشق جنين.. لهذا أتحدث عن جنين.. ولماذا جنين؟ لأنها جنين..

جنين.. أي فارس ستقتلين؟ أي حبيب ستستبدلين؟ وهل أنا في فهرسك من الطرائد والمذبوحين؟

دعيني أعترف لك يا مجرة الكون الثائرة الآن.. أريد ان أتحول في مخيالك الفلسفي إلى نجمة تضيء عتمة الإنسان.. إلى كلمة على طريقتك.. إلى هلاك هادر قدر الإمكان..

وفي الختام..

اقرئي يا جنين سيرة هذا الجسد بعد أن يستحيل صمتًا، واعلمي أنك بالنسبة له فعل انغراسٍ وجودي، وانقلاب الفناء إلى الخلود عبر تفاصيل مدينة لن يكررها الزمن..

سأمنحك جسدي ولن أموت.. سيخرج من عظامي وردة، ومن رفاتي شجرة، وسأعود من جديد يا جنين.. سأعود..

.

# من هو هذا الرسام؟

وأُبتُ إلي حيرتي حول لوحة سكنت مَليّاً مُقابلها، الى دقائقها التي تجاوزت حدود الألوان، الى حتوف ليست مجرد خطوطٍ، بل قصة تروي حكاية الإنسان.

في قلب هذه الرسوم الملونة طرت بجسدي، لكن ليس بالمعنى البيولوجي أو الفيزيائي التقليدي للطيران، وإنما كموجة تنتشر في الفراغ، وتسير في جنون هذه اللوحة.

كان هناك حيوات عديدة، وعوالم مديدة، وأثناء انتشاري فيها لفت انتباهي أنني كنت في احداها! وعندما دنوت مني شعرت ان الذي هو أنا ليس أنا؟! يشبهني، يسكنني، ويتكلم بلساني، لكنه ليس أنا؟!

تلبّثت طويلا أنظرني مُرتبكاً، أتأملني مُندهشاً، من يكون يا ترى هذا الذي يشبهني في كل شيء؟

شعور هائل بالاغتراب اجتاحني، ووضعني أمام إشكالية فلسفية معقدة: "هل أنا ثابت ومستقل خارج هذه اللوحة، أم أن أناي ليست سيدة في بيتها؟!"

حاولت الخروج من قلق اللوحة، ولكن هناك من أجبرني على المكوث فيه؟! وبينما أنا في خضم صراعي مع هذا المجهول، وإذ به يعرض الحقيقة العارية، والتناقضات الصارخة، والتدفق اللانهائي للأفكار الفوضوية في رأس هذا الذي يشبهني.

كنت أتهاوى في سحيق الخوف والقلق أثناء مشاهدتي لهذا العرض الذي يشبهني، وكأن صاحب اللوحة أصر على عرضها لي ومنعني من الخروج منها ليكشف لي الحقيقة.

بدون وعي انطلقت أتشبث بهوية هذا المجهول، أريد أن أكشفه كما كشفني، أريد أن أعريه كما عراني.

وبعد برهة جاء صوت من خارج هذه اللوحة يقول لي: "ألم تعلم هوية هذا المجهول؟".

**فأجبت: "لا".**

إنه أنا..

**من أنت؟**

أنا الرسام.

**أنت الذي رسم هذه اللوحة؟**

أجل..

**ما اسمك؟ ومن تكون؟**

أنا هو أنت، وأنت هو أنا.. ثم اختفى الصوت؟!

أدركت حينها أن الإنسان مشروع فني مفتوح وليس كائناً ناجزاً، فأنا هو أنا، ولكنني أيضا لست أنا.

إن هوية الإنسان ليست لوحة مرسومة مسبقاً، بل هي حكاية تُكتب لحظة بحظة، ومن يكتب هذه الحكاية هو أنت.

# وصيةٌ لا تموت

لم أكن يوماً عبئاً تاريخيّاً على أحد، أو حيزا جغرافيّاً تحده صخرة أو سياج كهربائي، بل تجذرا أنطولوجي في مواجهة المحو، فكرة فلسفية تقفز فوق أسوار السياسة وجدران الجغرافيا لتحدد هوية الأمة وتُشكل ماهيتها الموحدة.

يؤلمني سرقة كوفيتي، والعبث في مطبخي، وتحريف رقصتي، ومسح مدينتي!

يوجعني تزييف اسمي، وطمس هويتي، وهدم مسجدي، دون أن يتحرك فيكم ساكناً؟!

هل باتت تؤنسكم إراقة دمي كل يوم في شريط الأنباء؟ ألم يحرك فيكم إنتاج الموت دوريّاً على جسدي أي ضمير؟!

ألا يُخجلكم أن عروس عروبتكم أضحت مجرد حياة عارية تُغتصب وتُقتل يومياً دون أن يُعتبر ذلك جريمة حتى في نظر القاتل؟!

إن الموت المستمر لي لم يعد قدراً طبيعياً، بل صناعة تكنولوجية باردة ومخطط لها، لكن ما يكدرني ليس قدسية دمائي السائلة على نشرات أخباركم، بل الموت الأخلاقي للأمة، والتي لا يمكنني تأويلها سوى أنها إعلان وفاة للضمير الجمعي العالمي!

يعز علي سقوطي من حساباتكم، يعز علي أن تعيش ضحيتي في غزة حالة من العبثية الكاموّية، يحز في نفسي أن أكتب عن دمي بحبري المقهور إزاء كيانات صورية كنت أظنهم يوماً من الأيام أخوتي وعائلتي؟!

أقف اليوم فوق أنقاضي لأفكك الحضارة وأعري الإنسانية بأكذوبة ما يسمى ب"حقوق الإنسان"، و"العدالة الوجودية"، و"الحق في الحياة"، فلم تكن يوما وثيقة حضارية، بل وثيقة بربرية، وما حدث حول جرح غزة

المفتوح يشهد على عقمكم الإنساني والحضاري، وهو سقوط وجودي أخلاقي أمام وطأة بربرية منفوفة بأكذوبة.

إن تجريد ضحيتي من صفاتها الإنسانية، وتحويلها إلى مجرد رقم يُسجل يومياً دون أي وخز للضمير هو إشكالية فلسفية معقدة تتعلق بابتذال الشر، كيف لا وهي مازالت مجرد حدث محلي عابر في أعينكم، ولكنها في عيني زلزال يضرب أسس الفلسفة الإنسانية والأخلاقية للأمة!

أكتب إليكم ليس بمداد الحبر، بل بصرخات الأطفال ودموع الثكالى، أنسيتم من أنا؟! أنسيتم من أنا؟! أنا فلسطين..

أنا لست محطة عابرة، أن القدر الحتمي لكوكب الأرض، وطالما أن هناك طفل ينادي باسمي، وغجرية تعشق تفاصيلي، وكاتب يحفظ تاريخي، ومقاوم يحمل أرضي، فلن أموت! لن أموت..

هذه الرسالة الأولى للأجيال في فهم "فلسفة الصمود"، فالمعركة فوق أرضي هي معركة الوجود المشترك حول مسرى المصطفى، وبيت المسيح.

في الختام..

أقف أمامكم كصوتٍ للتاريخ، وكحارسٍ للهوية العربية والإسلامية، من أجل الخروج من هذا المأزق الوجودي الذي يتطلب تعرية الادعاء الغربي باحتكار "الأستاذية الأخلاقية" المنافقة، والقيم "الإنسانية العالمية" الكاذبة، وتشييد عهد كوني جديد يعيد للروح الإنسانية حرمتها وقدسيتها المطلقة، وللذات البشرية عزها وشرفها وكرامتها الراسخة.

وأحيطكم علماً أن حريتي حتمية ربانية وليست منحة من أحد، ولكن من هو المنشود الذي سيكتب الوثيقة التاريخية في فتح فلسطين وينال شرف تحريرها؟!

الله تعالى أعلى وأعلم، وإلى أن يحين الوقت، ستبقى فلسطين الجرح المفتوح الشاهد على عقم هذه الأمة والتنازل عن روحها أمام الناس، وأمام رب الناس.

# برقية إلى الله

عالق في هذا العالم الخيالي الذي صنعته لي إزاء المفترس الفائق، أمام احتفالاته التي يقيم بها طقوسه الدينية الغامضة، محاولا تحطيم ما تبقى من مدينتي الفاضلة.

لقد كانت ميليتس موطن الفلسفة الطبيعية، وإفيسوس مركز الفلسفة الهرقليطية، وإليفسينا كانت مَرْفأ ترتطم فيه الأسئلة التليدة بالصيرورة الفيزيقية، وعندما سَقَطَت كنت أشتم رائحة عطر هناك.

تتبعت رائحة العطر بلهفة ودون اللهفة، كنت مسودة عريقة فيها، كنت ألمس جرحي العتيق فيها، كنت أتناولني وليمة قديمة فيها، كنت أتلوى كرقصة بولندية فيها، كنت أتجاوز سرديتي اللاهوتية فيها.. كنت وكنت وكنت، حتى أرشدتني روحي الى المقهى.

رأيتك بجانب المقهى، فدخلت اليه، كانت ترنيمة هوميروس تنتشر في المكان، الجالسون يتمايلون فوق بلاط المجون، وأنا أذوب في جرح من الخيالات لم يُرسم بعد.

وفي لحظة شبق سيكسولوجية سار الجميع في موكب تقودهم فيه عشتار، بينما أنا كنت متورطاً في ملحمة أخرى.

أرسلت خلف النادلة، وكانت كالميثولوجيا الكلاسيكية القادمة من العالم السفلي، طلبت القهوة، وذهبت النادلة للصلاة.

في الواقع لم أكن أحب القهوة، ولكنها جاءتني على هيئة راقصة غجرية، ارتشفت رشفة منها أثارت خيالات جامحة، فرأيتك بين ملحمتي هوميروس الشهيرتين "الإلياذة والأوديسة".

نفضت رأسي.. وقلت لنفسي: "القهوة الغجرية.. جلبت بصحبتها أشياء غير عاديّة!! فكيف هيئ لي أني رأيتك؟! أم أنني أصبحت لست عاديّاً!!"،

هربت نحو الجريدة التي بين يدي، وإذا بأحرفك تعترضني في كل مكان فيها!

خرجت الى الشارع هربا منك وإليك دون تفكير، دون جنون، دون أمل يومض، وحزن يفور. وأينما استوقفتني غيمة أو نحلة، طفلة أو زهرة، ورقة أو صخرة رأيتك فيها!

أعييت بلوثة تسريحة أحرفك، وجلست بجانب الصخرة أنظرك متلبكاً! فأنا لم أختر هذه الحكاية، وأشعر بالذنب لكتابة هذه البرقية. لكني أريد فقط أن أعبر لك عما أشعر به تجاهك. هُيام لن أشفى منه إلا حينما أراك، وأعلم يقيناً أن هلاكي سيكون حينها، لكن ماذا أصنع ببقعة في ناسوتي لا يملؤها إلا أنت..

# غزة مرآة لعجزنا الوجودي

صيحات في السابع من أكتوبر عذبتني.. صرخات في السابع من أكتوبر قتلتني..

أصوات غزة التي حُفرت في ذاكرتي قُلي بربك كيف أنساها!! كيف أنساها!!

أشعر يا غزة بالخيانة.. مع أني والله ما خُنتك؟!

أشعر يا غزة بالعار.. مع أني والله ما بَعتك؟!

أشعر بالغضاضة تنسف أركاني وتهدم بنياني.. مع أني والله ما داهنت ولا بايعت ولا طبّعت ولا فرّطت ولا صفّقت..

ولكني أعترف يا غزة أن سوءتي بانت أمام أطفال بدون رؤوس..
وعورتي انكشفت إزاء نساء دقّت الناقوس..
إلهي.. حبيبي.. مولاي.. أشعر أن صلاتي نفاق.. بيتي نفاق.. طعامي نفاق.. عملي نفاق.. نومي نفاق.. أشعر أن حياتي كلها نفاق..

وأعلم أن دموعي خيانة.. وأن اكتئابي الذي شطر ذاتي الى ذواتٍ قد قامت فيها القيامة..

يا غزة.. لم أعترف طيلة حياتي بسقوطي لأي كائن على متن هذه الكبسولة.. ولكني اعترف لك بعجزي وعاري وانصهاري..

وأعلم يا غزة أنك سئمت الخطب والمظاهرات والشعر والدعوات.. ولله درّك.. فكيف لغزة أن تتحرر بالكلمات؟!

تقفين بين سنيّ خلع العذار.. وبين شيعي يخشى العار!!

أيّها السابع من أكتوبر.. باسمك آمن من آمن، وكفر من كفر، وأنا أؤمن أن نصر الله آت، ولكني لا أعلم إن كان الله سيقبل اعتذاري؟

يا شعب غزة.. هل تقبلون اعتذاري؟

يا شعب غزة.. ما الحيلة والرصاصة في يد غيري!!

أما هذه الرصاصة فلا أعلم كيف أطلقها.. وأما الكلمة فقد قلتها.. وللعلم أنه في البدء كانت الكلمة، ولا يختلف اثنان على أن الكلمة مسؤولية..

ولأن وطني يعاني من التلون السياسي في زمن يحتاج فيه إلى كل قلم واعٍ، كي يعيد رسم المشهد الفلسطيني كما هو، دون صمت أو تزييف أو تخاذل أو نفاق أو هروب، فقد أطلقت كلمتي.. وفي كل حرف حرّ فيها كنت أشعر بالحياة، إلا أن أحرفي كانت تحوم في رقعتي غريبة.. على يد ابتسامات حقيرة، كانت تعطيني يداً تُسبح، وبالأخرى خنجراً يذبح!!

ولا أخفيكم أن السبات كان خيارا وجودياً للعملاق العربي النائم، الذي اعتبر الوطن جاسوسا.. فانتزع أسنانه، وقطع أصابعه، واحتجز أرواحه الثائرة قبل غفوته..

وأما عن حيوان أمريكا فقد اطعمنا خبز الرعب، ثم لوّن التاريخ، قصف المناهج، صنع الأحزاب، ومزق القصائد وأحشاء ذلك الطفل الذي خرجت رغما عنه في مكاتب السمسرة الصغيرة..

إن أكاذيب أمّة ال 2 ميار مسلم فضحتها لحظة حزينة لطفل من غزة ولد في وسط المحرقة، فصلت رأسه عن جسده قبل أن يزفر زفرته الأولى، وطار رأسه في الفضاء كعصفور حر يرفرف نحو ربه ليخبره بكل ما جرى..

وأمام تآكل المعنى وانهيار "اللوغوس" في عالم يمتلك كل الأدوات والتكنولوجيا التي وصلت به إلى كوكب المريخ، بينما يقف عاجزاً (أو متواطئاً) عن إيصال شربة ماء أو ضمادة جرح لبقايا طفل في بقعة ضيقة مكشوفة، كنت ومازلت أبحث عن صوتي المقهور فيها، أنادي على أجزائي المنثورة هناك على أرض غزة "رأس طفل مقطوع أقبله، جزء من جسد طفلة أحتفظ به"، أتوسلهم أن يسامحوني.. أن يغفروا لي.. أن

يتجاوزوا عن ضعفي وقلة حيلتي وعاري وانصهاري.. لعل الله يغفر لي ويصفح عني..

ولا أعلم إن كان الله سيقبل اعتذاري..

يا شعب غزة.. هل تقبلون اعتذاري؟

غزة.. أشهد الله أني حاولت، ولكن ما بيدي حيلة ولا وسيلة، ويعلم الله كمّ المأزق الفكري والوجودي الذي أتعرض له، والذي خلق فجوة مرعبة بين وعيي والواقع، والذي أرغمني لإعادة تعريف علاقتي بهذا الكوكب الأزرق المشلول..

وفي وسط هذا الشلل الإرادي، والمسيرات المخصية، وإغترابي عن الذات، أمام مسرحية دموية لا أملك حق إغلاق ستارتها، أصبح بكائي مجرد ذبذبة صوتية تائهة في فضاء إلكتروني لا يغير من واقع المجازر شيئاً.. لكني أحاول أن أتحدث عن هذا الشرخ الأخلاقي العميق؛ لأن الفرد يشعر - فلسفياً - أنه يعيش على حساب موت غزة التي لم يستطع إنقاذها؟!

ختاماً..

إن فلسفتي لعجزي وألمي لا تقدم عزاءً له، لكنها تمنح العجز بُعداً آخر، وهو أن استمرار شعورك بالعجز والألم لما يحدث في غزة هو الدليل الأخلاقي الأخير على أنك لم تمت إنسانياً بعد.. فيا كوكب الأرض هل مت إنسانيّاً أم مازلت بعد؟!

# الفهرس


الإهداء ..... 5
المقدمة ..... 6
توطئة ..... 7
مُعلق أنا في حقو الفراغ ..... 8
هكذا ينبت الورد في حدية الشيطان ..... 10
لو كان للشجرة خط مينكوفسكي ..... 12
متى يستيقظ العملاق النائم ..... 13
لذلك لم تسجد الملائكة للشمبانزي ..... 14
الكتابة هي حياتي ..... 15
عتيقتي الضائعة ..... 16
الحمامة البيضاء ..... 17
عندما تبني سفينة من البهائم ..... 18
متى يقرر الخروف أن يصبح حرّاً ..... 19
صغيري الذي أشعل الاشتباكات ..... 21
معركة في عقلي بين ستة مجانين ..... 22
عندما يصنعون لك أنا جديدة ..... 23
المعزل العميق ..... 25
هكذا قال لي صديقي ..... 27
ماذا لو كنت برتقالة ..... 28
أين هي يسألني الخريف ..... 29
حتى الصداقة أحياناً نصيب ..... 31
أنا الذي لم أختر أن أكون أنا ..... 32
وهل يموت البطل ..... 33
الحبيب يقتل حبيبه ..... 34
لا تلعن القدر ..... 36
ميعاد الثورة ..... 37
ألقي بجثماني عليها ..... 38
سيمياء الحرف والوجود ..... 39

نحن أطفال هذه الأرض ..... 40
شيء ليس كالأشياء ..... 41
لتبصريني كما أنا ..... 42
أحدث عنك نفسي ..... 43
حكايتي مع معادلة فيزيائية ..... 44
سؤال الإهلال ..... 46
هسهسة الحرباء ..... 47
بائع مصاحف جوال ..... 48
مذهبي الوجودي ..... 49
أنياب ناعمه ..... 50
رقعة تعريفية ..... 51
واحة صمت ..... 52
المخاض الراديكالي ..... 53
أبهرني اكتشافه ..... 54
معالج لا يرحم ..... 55
معنى المحمدية ..... 56
حقير ..... 57
يوم الأحد ..... 58
واجب العزاء لقلبي ..... 59
نصف إنسان ..... 60
تلك المواسم ..... 61
21 طعنة ..... 62
سيد الطبيعة ..... 63
لعله يراني ..... 65
لحظة ملتفة ..... 66
كلمات ليست كالكلمات ..... 67
إنكاره مستحيل ..... 68
بين سبع مجالات ..... 69
سري للغاية ..... 70
ثلاجة الحليب ..... 71
ما يكفي من الجنون لتهديد العبقرية ..... 72

نفايات تطورية صامتة ..... 73
العوالم الغامضة ..... 74
الفلترة لدماغ مرن ..... 75
لقد تأخرت ..... 76
هل سنلتقي غداً ..... 77
ساعي بريد ميت ..... 78
الحقيقة المستورة ..... 79
لا تخسر الشغف ..... 80
تلك المدينة ..... 81
تحت سماء السين ..... 82
زلزال بوليتيكي ..... 83
قذائف راديكالية ..... 85
لماذا يموت رجالنا مبكرا ..... 87
عندما تتحول النملة الى فيل ..... 90
لماذا جنين، لأنها جنين ..... 93
من هو هذا الرسام ..... 95
وصية لا تموت ..... 97
برقية الى الله ..... 98
غزة مرآة لعجزنا الوجودي ..... 101
الفهرس ..... 104